

كتاب الشهر 7 سلسلة شراع



من أجل مجتمع
مغربي قارئ

10 دراهم

اللذة والعنف

(تاريخ الزواج)

لحسن العسبي



جديد بديف®
jadidpdf.com



WWW.JADIDPDF.COM

سلسلة شراع

كتاب شهري يصدر عن وكالة شراع
لخدمات الإعلام والاتصال

المدير رئيس التحرير : خالد مشبال
لوحة الخراف : أحمد بن يسف

مركز الإدارة

137 شارع ولي العهد - طنجة

الهاتف : 94.42.12

37.39.27

فاكس : 94.42.16

العدد السابع : ربيع الثاني 1417 - سبتمبر 1996

«شراع»



سلسلة شهرية لنشر ثقافة الإعلام

التمن : 10 دراهم

من اجل مجتمع مغربي قاري

**د دعم الدولة للثقافة - والكتاب بصفة خاصة - يبقى دون
المرغوب فيه شعبيا لخلق مناخ فكري متجدد ، مع تردها إلى
اليوم في دمج الثقافة ضمن مخططات التنمية .**

واقع الكتاب المغربي ..

تنشر « وكالة شراع » ، ملفا صحافيا عن « واقع القراءة والكتاب في المغرب » ، نظن



أنه سيكون أول إنجاز ميداني من نوعه ..
منذ سنتين ، ومع بداية تهيب مشروع كتاب الشهر ،
نكتشف عدم وجود أي دراسة مرجعية معتمدة ، حول قضايا
الكتاب والنشر ، يمكن الإستعانة بها في مشاريع الإستثمار
الثقافي ..

- ... حتى الوزارة المعنية بشؤون الثقافة ، لا تتوفر

مصالحها على مرجعيات مضبوطة في هذا الصدد ..
حتى في ندواتنا وكتاباتنا وأحاديثنا العامة ، غالبا ما
نرجم بالغيب ، عندما نقيم قضايا النشر في غياب
المعلومات والأرقام الدقيقة حول أسواق الكتاب ،
ومستويات القراءة في بلد (متعثر ثقافيا) ، أكثر من
نصف سكانه لا يكتبون ولا يقرأون !

ملفنا الصحافي عن واقع القراءة في المغرب ، يشير
حقائق مسكوت عنها في غاية الأهمية والخطورة بالنسبة
لحاضر ومستقبل (الثقافة الوطنية) ، على ضوء إحتدام
صراع الثقافات عبر العالم ، واكتساح الفرنكوفونية
لمنطقتنا المغاربية ، بهدف التشكيك في إنتمائنا القومي
والحضاري ، وتحويلنا إلى (شعب حائر) ، يفقد بالتدريج
هويته اللغوية ..

- ... وما يترتب عن ذلك ، من تفسخ وتلاشي أقدس
مقومتنا الإنسانية ..

أثناء إشتغالنا بحصر وترتيب عناصر هذا الملف ،
نكتشف حقائق أخرى بالجملة ، منها :

- تدني نسبة القراءة بين المثقفين لأسباب ذاتية ، تطفئ
عليها روح التعالي والترفع .. عكس ذلك ، نكتشف أن
معدلات القراءة بين المتعلمين في ارتفاع مستمر .. !!
- رواج (الكتاب الفرنكوفوني) ، يفوق بكثير (كتابنا

المغربي) الذي يعاني أزمة حقيقية في أسواق التداول .. !!
● أشهر شعرائنا وقصاصينا ومؤلفينا ، لا تزيد مبيعات
كتبهم خلال سنتين كاملتين عن ألفي (2000)
نسخة .. !!

● أسعار الكتب صاروخية ، وأبعد ما تكون عن
التداول ، حتى بالنسبة لذوي الدخل المحترم .. !!

● دعم الدولة للثقافة - والكتاب بصفة خاصة - يبقى دون
المرغوب فيه شعبيا ، لخلق مناخ فكري متجدد ، مع تردها
إلى اليوم في دمج الثقافة ضمن مخططات التنمية .

وإذا كان ملفنا الصحافي عن واقع القراءة والكتاب في
المغرب ، يرفع نفس شعار وكالتنا الإعلامية : « هن أجل
مجتمع مغربي قارئ » ، فإننا كما نقول دائما ، لا
نراهن على المستحيل ..

- ... لأن إقبال القراء المتعلمين على أعدادنا السابقة من
كتاب الشهر ، يجعلنا نطمئن ونتفاءل ..

ولأن صدور « سلسلة شراع » بانتظام كل شهر ، أصبح
خلال فترة قصيرة ، عنصرا منشطة لأسواق الكتاب في
المغرب ، وحديث الشهر في مختلف المجالس ..
● والله الموفق ..

*** خالد مشبال**

إهداء...

« إلى أمي زينة .. إلى أمي فطومة »

**« كل كتابة تدعي الإحاطة بتاريخ جازم ونهائي للزواج ، هي
كتابة غير علمية . »**

تاريخ اللذة والعنف .. !!

الزواج ؟! هل هو رفقة طيبة بين الرجل والمرأة ؟! أم هو قيد وسجن ؛ وقدر مخيف لا بد لكل واحد من الجنسين أن يذوق مرارته .. ؟! لكل واحد أن يختار الجهة التي أراد .. فذلك لن يوقف أن يسكن الزوج لزوجته ، ولن يضع حدا لتكرار تلك العملية الغريبة ، المعطرة بسحر خاص ، تتجمع عندها كل خلجان العواطف والأحاسيس الإنسانية ، التي إسمها «الزواج» .. ومنذ غادر آدم وحواء جنة الخلد ، بعد أكل تفاحة الرغبة المحرمة ، أي منذ

اكتشاف الأدميين لحتمية الزواج ، لضمان استمرار النوع البشري ، منذ ذلك الزمن البعيد ، بدأ الزواج يسجل أولى حروفه في كتاب التاريخ الضخم المثقلة صفحاته بتفاصيل وحكايا لا حصر لها .

فتاريخ الزواج ليس هو تاريخ الحب بالضرورة ، بل هو أقرب لتاريخ اللذة والرغبة والعنف . هو تاريخ تقنين هذه اللذة وحدود ذلك العنف ، وكل كتابة تدّعي الإحاطة بتاريخ جازم ونهائي للزواج هي كتابة غير علمية .. وما سيلبي من تفاصيل عن تاريخ الزواج (منذ أقدم العصور حتى أيامنا هذه) ، لا يعدو أن يكون إلا محاولة لفتح كوة صغيرة ، تفضي إلى فضاء الحضارات والمجتمعات بتنوع ثقافاتهما وشساعة تاريخها .. فلكل شعب ، ولكل عصر ، ولكل حضارة ، تقاليدنا الخاصة في هذا الباب .

كانت العروس في الصين القديمة - مثلا - تطوف بالمدينة محمولة في هودج مطرز بالساتان والحرير الأحمر المذهب ، قبل التوجه إلى بيت زوجها الذي لم يكن قد رآها قط من قبل ، وعليها ألا ترفع رأسها ، أو تنظر في عيني أحد لأيام ثلاثة متتالية ...

أما في حضارة «المايا» (بأمريكا اللاتينية) ، فالزواج

يتم بحضور شيخ وقور ، يقوم بعملية التزويج ، ويكون ذلك مصاحبا بوليمة باذخة ، يأكل فيها الضيوف لحد الشخمة ، بينما في الهند القديمة ، كان واجبا على الخطيبين ، ليكون زواجهما مباركا وأبديا ، أن يقوموا بكل الطقوس التي تفرضها شعائر «السبطا بادي» ، حيث يقوم العريسان معا ، يبدأ في يد ، بسبع خطوات فوق المنصة المنتصبة لهذه الغاية ، والكل يتتبع خطواتهما الوثيدة تلك ، التي تعني انطلاقة رحلة الألف ميل في حياة الزوجية ..

علينا ألا ننسى أنه في هذه العلاقة الحميمة ، السرية ، التي هي الزواج بين كائنين هما الرجل والمرأة ، تبرز واضحة جليلة روح المجتمع الذي ينتميان إليه ، وبذلك فالزواج عنوان ثقافة بامتياز ، وفيما وراء حجاب العروسة لا نكتشف فقط ذلك الجمال الأخاذ لأنثى قد تكون ذات فتنة كارثية ، ولكننا نكتشف أساسا وجه مرحلة وعصر بكامله ..

هذا الوجه - أو تلك الروح - هو ما سنحاول مرافقته في صفحات تاريخ هذه العلاقة الإنسانية الشديدة التعقد ، والشديدة الإغراء .. فزواج الإغريق غير زواج الرومان ، وزواج الفراعنة غير زواج القرطاجنيين والأفارقة والهنود .. أما طقوس الزواج في الديانات السماوية فذلك عالم آخر

مستقل بخصوصياته وقوانينه ..

في كتابه «خمسة وعشرون قرناً من الزواج» الصادر سنة 1961 ، يؤكد «بيبر أوديات» أن الزواج طقس حميمي ، يرتبط من حيث طقوسه وعاداته بجماعة توحد بينها الجغرافية والقرابة العائلية والثقافية .. ولن يتقرب الملاحظ في اكتشاف أن زواج مدينة من نفس البلد تقع شمالاً ، ليس هو زواج مدينة تقع في الجنوب ..

في سنة 1842 ، سيتزوج محام لامع بمنطقة «إلينوا» الأمريكية ، يبلغ من العمر 33 سنة ، اسمه «إبراهيم لينكولن» (هو الرجل الذي سيوحد أمريكا بعد حرب أهلية طاحنة بين الشمال الأمريكي وجنوبه) ، من شابة جميلة تدعى «ماري طود» ، سيقام الحفل في بيت العروسة ، حيث سيشرف قس كنيسة كاثوليكية على تزويجهما ، وكانت بوابة الزواج بين إبراهيم وماري قد فتحت ليخطوا معا أولى خطواتهما فيها ، حين وضع الشاب لينكولن في أصبع عروسه خاتماً كتبت عليه عبارة : «الحب أبدي» ..

غير بعيد عن منطقة «إلينوا» ثمة شاب من الهنود الحمر يدعى «جيرو نيمو» كان يحب فتاة كالحيزران ، عصية على القبض تدعى «ألوبي» ، وهي ابنة «نوبوسو» أحد زعماء

الهنود الحمر . كانت في ربيعها الخامس عشر (سن البلوغ عند الهنود) ، أما «جيرو نيمو» ، فما أن أكمل السبعة عشر من عمره (سن الرجولة والإستقلال الذاتي) ، حتى تقدم إلى زعيم قبيلته . بعد أن ضمّ إلى مجلس المحاربين الذي يخول له فعل ما شاء . لمفاوضته في الزواج من إبنته ..

طلب الأب من الفتى إحضار الكثير من الجياد المتوحشة التي لم يركبها أحد من قبل .. غاب العاشق مدة ، ثم عاد ومعه الجياد المطلوبة ، التي ما أن سلمها لوالد العروسة حتى اتجه رأسا صوب فتاته وحملها بين ذراعيه ، ليصبحا بذلك زوجين جديدين داخل القبيلة . .

كان ذلك سنة 1846 ، أي أربع سنوات بعد زواج «ابراهام لنكولن» ، وهو ما يظهر أنه في نفس البلد ، ثمة عشرات الطقوس والشعائر في الزواج ، تكون مختلفة عن بعضها البعض ... ●

« تعالي يا أفعى الصحاري ، عانقي أفعى القصور . »

الزواج أمر رجالي

نرجو أن لا يغضب العنوان أعلاه بعض نساءنا
المغربيات !!، فهو مستوحى على كل حال من
واقع التاريخ .. تاريخ الزواج ، الذي نبهر في تيارات
أخباره ، والتي تقود سفينتنا إلى مرافئ الفراعنة بضفاف
وادي النيل ، وإلى مرافئ الإغريق القديمة ، حيث البون
شاسع بين زواج وادي النيل وزواج أثينا . . الأول أساسه
حرية اختيار بين الجنسين ، بينما الثاني أساسه حجب المرأة ،
والمنافسة البدنية والفكرية والسلوكية بين العرسان أمام

أهل العروسة لأجل الظفر برضاهم . .

«الحرية» التي يتمتع بها اليوم إنسان القرن العشرين في اختيار رفيق العمر ، هي مرحلة من مسلسل طويل كانت فيه المرأة مجرد شيء لإنتاج النوع البشري ، مثلما كانت موضوعا للذة والمتعة من حق الرجل شراؤه والتمتع به ، وتعويضه إذا ما أرادت «الكَانَة» ذلك .. (وحين وضعت كلمة «الحرية» بين مزدوجتين، فلأن أمر هذه الحرية لا ينسحب علينا نحن العرب تماما ، فلا تزال إكراهات عدة ، تفعل في أمر الزواج بين نساءنا ورجالنا ، حتى وإن كان النص الديني يلزم شرط القبول والموافقة) ..

في العهود الغابرة ، كان الفراعنة الحضارة الوحيدة التي كَرَّمَت المرأة والرجل معا ، ووضعتهما على قدم المساواة . فقد كانت تربية الأطفال ، لا يفرق فيها بين الإناث والذكور ، ولا يميز بينهما .. كانت الفتاة الفرعونية تتعلم كل الذي يتعلمه الفتى الفرعوني .. وكان هامش اختيارها للزوج الذي سيكون رفيق حياتها ، هامشا كبيرا .. كان عمر زواجها يحدد في سن الخامسة عشرة الذي ما أن تبلغه الفتاة حتى يشرع والدها في البحث عن زوج تتوفر فيه الشروط المادية ، التي ستحقق طلبات ابنته في الزواج .. واللافت

للنظر ، هو أن زيجات الحب كانت كثيرة في الحضارة الفرعونية ، وأن إلهة الحب والفرح أنثى ، وهي «آثور» .. هل لابد أن نذكر هنا بامرأة العزيز في قصة النبي يوسف عليه السلام ؟ ثم بالفاتنة الأسطورية «كيلوترا» التي كانت كارثية بجمالها الفاتن ، ورهيبة بأحابلها ودسائسها ، والتي انتهت تلك النهاية المشهورة ، حين ملت من أيامها ، فأمرت خدام القصر أن يأتوها بأفعى رقطاء هائجة من الصحراء ، التي ما أن أحضروها ، حتى أمرتهم أن يطلقوها في غرفة النوم ، وأن يغادروا الغرفة ، لتتجه هي صوب الأفعى قائلة :

«تعالى يا أفعى الصحاري ، عانقي أفعى القصور» .. كانت كلمة المرأة مسموعة في الحضارة الفرعونية ، ويحدث أن يعارض الأب زواج ابنته ، لكن إصرار الخطيب وثبات المحبوبة على العهد ، يلين في النهاية من موقف الأب الذي لا يجد بدا من الإذعان لسلطان الحب .. إذا كان حظ فتیان وفتيات الفراعنة باسماء لهذه الدرجة من البهاء ، فإن حظ أقرانهم بباقي الحضارات القديمة ليس مشابها ، بل هو على النقيض تماما ، حيث أن الزواج أمر رجالي بامتياز ..

في كتابهما : « تاريخ الحياة الخاصة » (الصادر سنة 1986 عن منشورات سوي - ج 11) ، يتحدث كل من « فيليب أري وجورج دوبي » عن أن الزواج في تلك الحضارات القديمة ، عقد يتم بين أب العريس وأب العروسة ، وأن الهاجس كان هو الحفاظ على الدم والقربة ، والزيادة في السلالة ، بل إن الزيجات كانت تتم والأبناء لا يزالون بعد في أحضان أمهاتهم ، رضعا صغارا .. والذين كانوا بشكل من الأشكال ، عملة التداول وتبادل المصالح عبر المصاهرة .

هنا لا مجال للحديث عن الحب وعن العشق والغرام .. فقد كان الزواج أمر عائلات ، وليس أمر أشخاص أحرار في حياتهم ومصائرهم .

في اليونان القديمة (في عهد هوميروس) ، كانت تزوج الفتيات لأكثر الشبان شجاعة وقوة. ولكي يختار الأب زوج ابنته ، كان لابد أن يشرف على مباريات المبارزة بين العرسان، والتي تشمل معارك البدن والفكر والسلو والأخلاق والخطابة ، والذي يحظى بإعجاب الأب ، هو الذي يكون زوج الابنة المنتظر ..

لهذا السبب ، تورد الحكايات والأخبار ، كيف أن الفاتنة « بينيلوب » زوج « عوليس » ، الفارس الذي ركب البحر

وغاب ، كانت دوما ترد العرسان الذين يتحاربون ويتنافسون
للظفر برضاها زوجة ورفيقة عمر ، وكانت كلما اشتدت
المعارك تقول لخطابها ، ما أن أنتهي من غزل هذا القماش ،
حتى أسمع لكم بالمبارزة .

وفي الليل كانت تفك خيوط كل ما غزلته ، لتعيد غزله
من جديد في الصباح .. وهكذا لسنوات ، لم تنه « بينيلوب »
قط غزل القماش حتى عاد « عوليس » زوجها الذي أطاح
بكل غرمائه من الفرسان ..

في القرن السادس قبل الميلاد ، ستتزوج جدة
« بيريكليس » (رجل دولة من أثينا ، يقرن اسمه بأول تجربة
ديمقراطية في التاريخ ، وخلف أعظم المآثر الإغريقية في
اليونان) ، ستتزوج على نفس الطريقة اليونانية ، ذلك أن
والدها ملك أثينا القديمة وديكتاتورها « كليستن » ، أعلن
أمام شعبه عن فتحه لباب الترشيح للزواج من ابنته الفاتنة
« أغارستي » ، وأن كل شاب يرى في نفسه الأهلية للزواج
منها عليه أن يتقدم لباب القصر ..

كان عدد المتقدمين - كما يورد ذلك المؤرخ اليوناني
هيرودوت - يصل إلى ثلاثة عشر عريسا ، وكانوا جميعهم
من خيرة أبناء أثينا . ولأجل عيون الأميرة ، سيقمون في

القصر سنة كاملة ، في جو منافسة يومية ، مشيرة ومشوقة ،
وكان الملك يشرف شخصيا على مراقبتهم وسؤالهم ، ويختبر
لياقتهم وكياستهم ونخوتهم وشهامتهم ، مثلما كان يقيس
عمق ثقافتهم .. في الأخير ، سيختار واحدا من الثلاثة عشر
شابا ، دون أن يسأله رأيه أو شروطه ..

كانت الفتاة اليونانية لا تغادر قط بيت العائلة ، بل إنها
كانت حريصة على أن تعيش بعيدة عن أعين الغرباء ، بل
وبعيدا حتى عن أعين رجال العائلة . وكان من باب
المستحيل ، أن تختار هي شريك حياتها ، ذلك أن القاعدة -
كما يقول الشاعر الإغريقي القديم - هي : « تزوجي الذي
يريدك والدك » ..

المرأة ، إذن ، في اليونان القديمة ، كانت نورا مقدسا ،
تجب حمايته وحجبه حتى يظل جماله متقدرا ، وهو الجمال
الذي تتبارز لأجله العضلات والأفكار ، وتتهيا
لبلوغه أرهف أجنحة الإغراء .. التي تظل تحوم مثل
فراشة يغريها بهاء النور .. ●

« سيتزوجني ، لأن أبي أراد ذلك . أما أنا فساء تزوج الموت ، و لن
أكون أكثر من قطعة لحم باردة في يديه ! »

عنف الذكورة

سنرافق هنا أنينا صامتا لنساء أوربا ، من الرومان حتى القرن الثالث عشر للميلاد ، كن فيه مجرد أدوات للإلجاب ولصفقات الآباء ، مثلما كن مجرد موضوع لرغبة ذكورية تفاخر بفحولتها .. وهي الذكورة التي لم تكن لترضى بأن تتهم بالحب والعشق ، لأن ذلك ضعف عواطف ما بعده من ضعف . لم يكن تاريخ الزواج عند الحضارات الأوربية مجرد تاريخ للعنف والإكراه ، فقد كانت هناك فجوات هبت فيها نسائم طيبة، إنسانية ، نادرة.

هكذا، إذا كانت المرأة المصرية القديمة تظهر دوما في الرسومات الفرعونية مساوية للرجل طولا ، يدها في يد رفيقها ، وعلى رأسها تاج مذهب أشبه بكرة بين قرنين ، وإذا كانت اليونانية في الرسومات والمنحوتات الإغريقية ، تظهر امرأة مغناجا ، يقع صريعا عند قدم سريرها قوم كثير من الرجال ... فإن المرأة الرومانية لم تكن أكثر من بضاعة وآلة متحركة ، «تشتري» من الأب (أو من يعيلها بدلا عنه) لأجل الإنجاب.. فالزواج عند الرومان لا يعدو كونه إطارا لحفظ العائلة ، والزيادة في الدرية ..

لم تكن المرأة الرومانية تستشار في أمر زواجها ، كان الحق الوحيد الذي يترك لها ، هو أن تقبل خاتمة الزوج الذي ارتضاه والدها . وعليها بعد ذلك أن تمتثل بشكل مطلق لهذا الزوج . لقد كان الأبناء عند أبيهم في نفس مرتبة العبيد .. هم مجرد أشياء من عالمه الخاص .. العبيد إشتراهم بماله ، والأبناء أنجبهم بفحولته ..

ثمة حكاية عن إقطاعي وفيثودالي روماني يدعى «كاطون» ، كان قد بلغ من العمر عتيا ، انحنى رأسه وتقوست كتفاه .. وكانت زوجته متوفية. صام عن الحياة

سنوات ، حتى تزوج ابنه . فاستفاقت فيه لواعج الحياة الزوجية .. وشاء حظ أمة فاتنة ، لا تزال بعد في عنفوان سنتها الخامسة عشرة أو يزيد قليلا ، شاء حظها العاثر أن تزور زوجة الإبن ، فاقتنصتها عيون الشيخ «كاطون» ، الذي لم يتردد في أن يتجه رأسا صوب بيت عائلتها ، لأنه قرر أن يجعلها زوجة جديدة له ..

كان الأب يدعى «سالونينوس» الذي فرح كثيرا لزيارة الثري لبيته ، وازداد فرحه حين خاطبه قائلا : «هل ابنتك مخطوبة لأحدهم ؟» ، نفى الأب ذلك بسرعة بالغة . فتابع «كاطون» الشيخ قائلا : «إذن ، فقد جئتك بصهر يليق بك ربما لن ترضى على سنه المتقدمة . لكن صدقني فهو لا يزال في كامل رجولته» .. أجابه «سالونينوس» بلا تردد : «الأمر أمرك يا سيدي ، أنا مستعد أن أهب ابنتي للذي ترضاه أنت ، إنها أمتك وهي فخورة بحمايتك» ..

ما أن أعلن الإقطاعي الروماني أن العريس ليس شخصا آخر سواه ، حتى نط الأب من الفرح وهول مسرعا لتوقيع عقد الزواج ، غير مصدق أنه سيصبح صهرا لـ «كاطون» الرهيب .. وبذلك زوجت ابنة الخامسة عشر ربيعا للفيودالي الشيخ الذي كان في عمر جدها ..

حين تسأل الرومان عن الحب - يقول «بيير أوديات» في كتابه : «خمسة وعشرون قرنا من الزواج» - وعن احتمالات ولادته بعد الزواج ، فإن جوابهم سيكون الإستهزاء منك .. فالعواطف عند الرومان دليل على ضعف الشخصية ، والرجال المحبون أو ضحايا الحب ، ناقصو رجولة ، يستحقون الشماتة والتبذ .

ولحدود زمن «شارلمان» ، فإن موافقة الأب هي حجر الزاوية حتى يكون الزواج مقبولا ومعترفا به .

وإذا ما كان الأب متوفيا ، فإن الولاية تعود مباشرة لأخيه ، أو للإبن البكر في حال انعدام هذا الأخير .

ولقد انتظرت الكنيسة المسيحية حتى القرن الثامن الميلادي لتقن الزواج في إطار طقوس كنسية صارمة ، وذلك بعد قرون من الطلاق المباح والزواج دون عقد واضح وشرعي .. حيث كان منطق اللذة والإباحية هو الغالب .. وهذا ما جعل طقوس الزواج الكنسية صارمة لحد كبير ، حيث حرمت الطلاق تحريما كاملا ، مثلما ألغت موافقة الأبوين ، وكان ذلك انتصارا للمرأة ، حولها من أداة للذة ، وموضوع للإنجاب ، ومجرد محطة في حياة رجال عديدين ، إلى كائن له مكانة أساسية في مؤسسة الزواج .. وكان

شرط الكنيسة واضحا ، حين أعلنت ضرورة موافقة العروسين على الزواج من بعضهما البعض ، وألزمت ضرورة إعلان ذلك بصوت مرتفع أمام قساوسة الكنائس ، وأمام كل الحاضرين حفل عقد القران .. كان ذلك بداية النصر الأول لعهد الحب في القارة الأوروبية ..

المفارقة أنه بعد أن كان الحب والعشق سبة في حق الرجل الروماني والجرماني وفي زمن «شارلمان» ، فقد أصبح الرجل غير المحبوب والمنبوذ من النساء أو الذي لا يفلح في استمالة عنق الوردة إلى نسيم أيامه ، أصبح هذا الرجل ، مجرد «نصف رجل» ، أي مجرد رجولة معوقة ناقصة ..

لن يدوم ملك الحب هذا ، الذي تتوج فيه النساء إمبراطورات إلا قرونا معدودة .. فما أن أطل القرن الثاني عشر الميلادي (بإيطاليا أولا ثم بفرنسا وإنجلترا قرنا بعد ذلك) ، حتى ألغيت تلك الطقوس الكنسية ، وقيدت تلك الحرية التي كانت للعريس في الزواج ، وعادت كلمة الأب لتكون الفيصل في الأمر كله .

في عصر النهضة ، سيعزز «هنري الثاني» كلمة الأبوين هذه بإصداره لقانون يجيز للأب أن يحرم أبناءه من الإرث في حال زواج أحدهم دون رضاه . وأن لاحق للأبناء في

الزواج بحبيبات القلب ، سوى بعد إكمال سنتهم
الثلاثين ..

وكانت النتيجة المنطقية هي كثرة العزاب الذين ينتظرون
إطالة العقد الثالث من العمر ، وكانوا مثل أطفال متلهفين
يودون لو ينبت زغب الإبط قبل نضج الذكورة .. كما أن
النتيجة المنطقية الثانية ، كانت هي كثرة زواج المتعة ،
والعشرة المهرية من إكراهات قانون «هنري الثاني» ،
وأصبحت الموضة أن يختطف العاشق حبيبته في جنح
الظلام ، وأن يختفيا الى الأبد مع أولى خيوط الفجر ..

ثمة قصة فتاة ، بالكاد أكملت ربيعها الثاني عشر ، حين
زوجها والدها مرغمة من «كونت دافو» الهرم ، والذي كانت
التجاعيد قد جعلت وجهه أشبه بشمعنة ذائبة .. والتي
قالت لقرباتها : «سيتزوجني لأن أبي أراد ذلك ، أما أنا
فسأتزوج الموت ، ولن أكون أكثر من قطعة لحم باردة في
يديه» .. ●

« هو رائع حقا في الشعر يا سيدي الكاردينال ، لكنه لا يساوي شيئا
في النشر...! »

فتى الأحلام

نماذج زيجات هذا الباب ، هي لنساء ضحِينَ وأخلصن
لأجل الرجل الذي ولج ميناء أحلامهن ، ورمى
مرساة سفينة فتنته وغرائبته .. هن نساء إستثنائيات اخترن
الإرتباط برجال إستثنائيين .. هنا نفرد المكان لشاعر في
حجم « كورناي » ، ولموسيقي في حجم « روبرت شومان » ،
شاء حظهما أن يرتبطا بنسوة امن برفقتهما ، فنحنن لها ،
في خضم محن كبيرة ، طريقا سالكة نحو التحقق .. مثلما
سنرافق نساء إفريقييا السوداء الأشبه بلبوءات الأدغال
الإفريقية ، واللواتي كانت لهن الكلمة الفصل

في كل مشروع زواج ..

هي صورة أخرى للزواج ، فيها الكثير من «النضال»
لأجل الظفر بالحبيب ..

لقد كانت مصر الفرعونية . كما قلنا سابقا . ، هي
الحضارة الوحيدة التي فتحت الباب واسعا أمام فتياتها
وفتيانها ، لأجل التفتن في ابتكار أساليب استمالة شخص
المحبوب ، وبالتالي حسن وضع «الفخاخ» لأجل «الإيقاع
به» .. وكانت توابل ذلك ، رقصة القصب ، أو قطع نهر
النيل سباحة ، وملاعبة التماسيح أو إهداء طير نادر .. مما
جعل للحب ذاكرة على ضفاف وادي النيل ..

أما في الحضارات الإفريقية السوداء (جنوب الصحراء) ،
فإن الزواج كان أموميا أكثر ، وكانت المنافسة تشتد بين
الإناث لأجل الظفر برضى الرجل . وكانت المرأة هي التي
تقدم الهدايا لهذا الأخير ، حتى يقبل بها عضوا ضمن فريق
الإناث المنتمي لمملكته .. الزواج في إفريقيا السوداء له
ارتباط كبير بالروحانيات وبالخرافة وبالدُم .. أما الفحولة
فقد كانت رمز ثقافة كاملة .. وفي كل المنحوتات الإفريقية
القديمة والرسومات الحائطية التي نقشت في كهوف عتيقة أو

على أحجار صلدة قديمة ، تركز في الأمثلة التي تقدمها عن الرجل والمرأة ، على الجانب الجنسي أساسا وعلى جانب الإنجاب .. ودور المرأة هو الإغراء ، أما دور الرجل فهو الذود عن العشيرة .. كانت تلك الحضارات القديمة رمزية في ثقافتها . وكانت طقوس التزاوج والتوادم ، تتم عبر رقصات وإيماءات وأبخرة وتماثيل . كلها رسائل يهرب من خلالها الجسد العاشق توقه وحنينه ورغبته في وصال الحبيب .. بذلك ، كانت المرأة مستقلة ونافرة لطبيعة الحياة الاجتماعية نفسها ، حيث الطبيعة عدو خارجي مشترك منخرط في حرب لاهوادة فيها ضد الإنسان .

في الشمال كانت الصورة مخالفة تماما .. كانت المرأة تلخيصا للذة ولرحم الإنجاب ، وكان الحرص شديدا على هذا الرحم حتى ينجب الذرية التي يرتضيها الأب أولا ، ثم العائلة ثانيا .. ولقد دونت كتب التاريخ . تقول «سايين داكوستا» في كتابها الضخم : «تاريخ الزواج» . الصادر سنة 1994 . قصص عدد من المشاهير ومعاناتهم مع إكراهات أنماط التفكير في أزمنتهم . نذكر منهم الأديب «كورني» والموسيقي العالمي «شومان» ..

كانت «كلارا وايك» في التاسعة من عمرها حين صادفت

في طريق حياتها «روبير شومان» . الشاب الذي أبدعت أصابعه فرحا روحانيا خلده في التاريخ .. كان لا يزال في بداياته ، وكان فتى حيا ، مقاوما ، ورقيق الأحاسيس ، كان شفيفا كهبوب نسائم الصباح ، وكان حادا مثل سيف الساموراي .. فكبرت «كلارا» في مملكة الفتنة به ، والوله بشخصه ، ولم تتردد أن تخطو هي إليه ، لتردم بياض خجله المستبد بينهما قائلة : «لأجلك أعيش وأحيا ، وبودي لو أهيك كل شيء» .. لكن إرادة السيد وايك والدها ، كانت ترى غير ذلك ، أدخلتها العائلة مملكة الصمت ، فأضربت هي عن الحياة ، وكانت لسنوات أربع ، تهرب شوقها وحنينها «لروبيرت شومان» الذي لأجل إخلاصها ، كتب أجمل نواته الموسيقية التي أطربت . ولا تزال . ملايين الأفئدة في المعمور .. وكثيرا ما ينسى المتمتع ، الألم المختزن في ثنايا الإبداع .. فالذي يتمتع هؤلاء ، إنما أحرق ذات ذاك ..

بعد أربع سنوات كاملة انتصرت «كلارا» على صمت سجنها ، ولقد كتبت إلى «روبيرت» قائلة : «لقد اعتقد والدي أنني سأنساك . أنساك ؟! .. ولم يمض زمن كثير حتى أصبحت «كلاراوايك» هي السيدة «كلارا شومان» ..

عند والد المرأة التي تعلق بها فؤاده .. كان الشاعر في الخامسة والثلاثين من عمره ، وكانت «ماري دولامبيرير» تصغره بثماني سنوات .. كانت سليمة عائلة من النبلاء ، وكان «كورنيي» غنيا بأشعاره فقط ، والشعر - في الغالب - لا يملأ الخزائن ، ولا يبني القصور ، ولا يسمح بامتلاك العربات الأميرية المذهبة التي تجرها أحصنة مطهمة ، والتي تفتح الطريق رأسا إلى قلب الأب والعائلة . فانتكس الرجل المعدم ، الغني بمجرد كلمات يطلقها في الهواء ، فتتحول إلى طيور ذات أجنحة ملائكية ترفرف في جنة أيام البشر ..

كان حظ «كورنيي» ، أن عبر به ذات يوم «ريشليو» الزعيم الديني والرجل المهاب الجانب ، فوجده مغموما ، حزينا ، فسأله ما به ، فأجاب «كورنيي» : «رأسي مزوبعة بالهوى» ، فأجابه رجل الدين بسرعة : «تزوج إذن يا بني» ..

التفت إليه الشاعر في نظرة استنكارية وقال : «المشكلة ياسيدي الكاردينال في هذا الزواج الذي تنصحني به !!»

جلس إليه «ريشليو» ، واستمع لحكايته مع ابنة الذوات «ماري دولامبيرير» .. فكان أن استدعى الكاردينال والد «ماري» إلى باريس ، وأخبره رغبته في إنصاف الشاعر وحبيبته .. لم يتردد الأب في الجواب بمكر قائلا : «هو رائع

حقا في الشعر يا سيدي الكاردينال ، لكنه لا يساوي شيئا في النشر».. ورغم ذلك كانت كلمة الوسيط هي الغالبة .
فقد تزوج الشاعر باهنة الذوات وكان زواجا له تاريخ ..
في القرن 19 كانت بفرنسا وبعض أجزاء ألمانيا وإنجلترا ، عادة مميزة و «غريبة» .. كانت هذه العادة خاصة بالبوادي في هذه البلدان الثلاثة .. فاعتبارا لكون عدد السكان قليل ومحدود ، وأبناء هذه القرية يعرفون جيدا أبناء (وينات) القرية الأخرى ، جرت العادة أن تخطب الفتاة الفتى الذي تعجب به . كأن تذهب عند أهله حاملة بعض السمن البلدي ، وإذا ما ذهن السمن خاطرهم ، فإنهم يقبلونها عضوا جديدا بالعائلة في فترة تجربة قد تطول لشهور . ولا يتم الزواج سوى بعد موافقة كل أفراد العائلة على الفتاة المتقدمة بعد انتهاء فترة «التجريب» !! .
كانت تلك بداية عصر جديد للحرية بالنسبة للمرأة في الدول الغربية ، بعد عهود طويلة ، كان الزواج فيها بالنسبة لهن ، مقترنا بالمهانة . ●

« في 20 سبتمبر 1792 ، يصدر أول قانون أوروبي ، لا يعترف
بالخطوبة كأمر ملزم للزواج قانونا . »

غيمة قبل المطر .. !

حين يعبر الغمام في السماء ، فقد يهطل المطر
ليخصب النبت والزرع في الأرض البكر
الراقدة .. وقد يعبر مثل سحب الصيف الذي
يبقى دون أثر ..

والخطوبة بالنسبة للزواج ، مثل الغيم بالنسبة
للبراري الشاسعة .. هي مجرد وعد بالخصب .. قد يتحقق
بفعل الزواج ، وقد لا يتحقق في حال فسخ أحد
الطرفين للخطوبة ..

حين نرافق تاريخ هذا الجزء الأساسي من تاريخ الزواج ،
نكتشف التعرجات التي قطعها هذا الفعل في تاريخ
الإنسانية صعودا وهبوطا .. شدة ولينا .. مثلما ننصت
لصوت الحضارات التي منها من قدس الخطوبة لدرجة الموت
وهدر الدماء ، ومنها التي اعتبرتها مجرد مقدمة للوصول
إلى العلاقة الوثقى الأكثر قدسية ورسوخا ، التي هي
الزواج . .

هكذا ، إذا كان من الواجب إشهار الزواج . كما يقول
بعض فقهاءنا الأجلاء . فإن الخطوبة لا تستوجب ذلك
بالضرورة .. بل هي مجرد لقاء عائلي بين أهل العروسة
وأهل العريس ، تكون نتيجته إصدار ذلك الوعد الغالي بأن
فلانة لفلان وأن فلانا لفلانة .. ولكل عائلة ، بل لكل شعب
ولكل حضارة ، تقاليدھا الخاصة في هذا اللقاء الأول ..
والخطوبة بشكل من الأشكال ، هي إبعاد للعين الطامعة عن
هذا الفتى أو عن تلك الفتاة ، هي أيضا نوع من السياج
الروحي والأخلاقي تحاط به الوردة ، حتى لا تتجرأ على
قطعها كل الأيدي العابرة . .

الخطوبة إذن ، التي هي وعد بالزواج ، ذات تاريخ
أيضا . ففي أثينا القرن السادس قبل الميلاد ، كان

يطلق عليها.. Le Engyesis ، أي : «العهد» . حقا
كان هذا العهد مجرد عهد شفوي ، لكنه كان عهدا مقرونا
بالكرامة، لأنه كان عهدا يعطى بحضور شهود ، وكل تراجع
عنه أو خيانة له ، يجلب على صاحبه الويلات .. فالغضب
حينها لا يكون غضب بشر فقط ، بل إنه غضب الآلهة أيضا
التي قصاصها هو إباحة دم الناقض للعهد ..

عند الرومان ، كان الفتى العاشق يتقدم الى بيت فتاته ،
وهو في كامل أناقته ، ويعلن أمام الملاء بصوت مرتفع أنه
جاء يدق الباب ، يريد فلانة زوجة له . . ولم يكن يؤخذ
برأي الفتاة إلا في أواخر العهد الروماني ، حيث كانت تطل
على المتقدم دون أن يراها ، فتقول رأيها فيه ، وتلك هي
اللحظة الوحيدة التي بإمكانها القبول أو الرفض ، لأنه حين
يجد الجدل لا مجال للتراجع أو إبداء رأي آخر مخالف ،
فكرامة الأب حينها هي التي ستمرغ في التراب .

إذا ما قبلت الرومانية خطيبها ، فإن أبواب الفرح تفتح
أمام خطواته . . فيتقدم بنخوته ، واثق الخطوة ، ليضع في
أصبعها ختما من حديد ، يكون الرباط الذي يربط به قلبها
وفؤادها ومستقبل أيامها . .

لقد كانت للخطوبة إذن ، قوة تعادل قوة الزواج نفسه . .

وهي القوة التي ستظهر وستعرسخ أكثر مع توالي القرون . . . وإذا ما ظلت الخطوبة في التاريخ الإسلامي غير مقيدة وملزمة بنص شرعي قطعي ، حيث أنها تركت في حجمها الطبيعي مجرد « طلب رسمي للزواج » ، لا تصل إلى مرتبة فعل الزواج ، لأنها لا تميز ما يجيزه هذا الأخير من خلوة ووصال وعلاقة جنسية شرعية .. إذا كان هذا حال الخطوبة في التاريخ الإسلامي (حتى وإن كان واقع العرف والتقاليد شيئا آخر تماما) ، فإن الكنيسة الكاثوليكية ، قد تدخلت في أمر الخطوبة ، ورفعتها إلى نفس المرتبة من القدسية التي وضعت فيها الزواج .. ولأنها حرمت الطلاق ، فإنها أيضا اعتبرت التراجع عن الإلتزام المتفق عليه في الخطوبة جريمة دينية ، وتحرم على المتراجع وأهله أية خطوبة أو زواج لثلاث سنوات كاملة ..

فالخطوبة أمر جدي ، تقول الكنيسة في العصور الوسطى ، إنه التزم أمام الله قبل عبيده ، بل لقد ذهب منظرو الكنيسة بعيدا ، متسائلين إن لم تكن الفتاة المخطوبة للمرة الثانية ، أشبه بامرأة ذات زوجين !! مما يعني أن الفتاة لا حق لها في أن تكون مخطوبة سوى مرة واحدة في حياتها .! وكان لابد أن يتدخل رجال القانون « وفقه الشريعة »

بعد ذلك بقرون ، ليصدروا نصا قانونيا شرعيا يقول بأن الخطوبة ليست أكثر من عهد بالزواج ، وأنها لا ترقى إطلاقا الى مرتبة هذا الأخير ، من الناحية القانونية . . ورغم ذلك ، فإن الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، قد جعلت الخطوبة فعلا لا يتم إلا بعد التزام شفوي من الطرفين أمام قداس الكنائس ، والذي يباركه القساوسة . .

وخلال هذين القرنين ، عاد تقليد وضع الخاتم في أصبع المخطوبة ، لكنه هذه المرة من فضة خالصة ، يكون الخاطب وهو يضعه في أصبع خطيبته مرتعد الأصابع ، ويقول لها في خجل : « سيدتي ، بهذا الخاتم الفضي ، أدعوك الى حبي بكل الإحترام المكين » .

ولأن بين الخطوبة والزواج يجري دوما شيطان الرغبة بين الجسدين النافرين كأحصنة جموح ، فإن العديد من الحضارات والشعوب قد كفت نفسها « صداع الرأس » ، ومزجت بين الخطوبة والزواج في عملية واحدة . . وهو الأمر الذي كان سائدا عند الشعوب الجرمانية والسلتية بالشمال الأوربي ، وكذا عند أغلب القبائل الإفريقية بإفريقيا السوداء . أما في فلورانس بإيطاليا ، فإن خذلان الخاطب للمخطوبة

يبيع دمه .. وأشهر الأمثلة ما حدث سنة 1215 لشاب يدعى « بيوندلمونت » الذي خطب فتاة رائعة تدعى « أميدي » ، والتي ما لبث أن أنسته إياها فتاة فلورانسية أخرى ، لم يتردد في السعي إلى الزواج منها .. سكنت عائلة « أميدي » وهذأت من أشجان ابنتها ، وتركت للريح أن تهب حيث شامت .. لكن ما أن اقتعد الفتى « بيوندلمونت » كرسي الزوجية في ليلة عرس باذخة ، حتى اصطادته سهام آل « أميدي » وأردته قتيلا ..

في 20 سبتمبر 1792 ، سيصدر أول قانون أوربي ، حدد الزواج المدني ، وحدد الطلاق أيضا ، ولم يعترف بالخطوبة كشيء ملزم للزواج قانونا .. ومن حينها لم تعد الخطوبة في أوروبا أكثر من مواضعة اجتماعية ، هدفها إعلان زواج محتمل ..


أي أنها بشكل من الأشكال أصبحت - بلغة الفلاسفة - «زواجا بالقوة» سوف يتحول بعد مدة إلى «زواج بالفعل» . من حينها ، كثرت الأمثلة التي دونت فشل مشاريع «زيجات بالقوة» عديدة ، كان أبطالها رجال مشاهير منهم : «لويس الثاني» الذي فسخ خطوبته مع «صوفي واتلباش» ، ثم الفنان «بيرليوز» الذي فسخ خطوبته مع «كاميل موكي» ،

وصولاً إلى « كافكا » الأديب العالمي الكبير ،
إلى « غارمويل » الصديق الحميم للروائي أوسكار
وايلد . . . الخ .

هل لابد أن نذكر أن تاريخ الخطوبة (كجزء أساسي من
تاريخ الزواج) ، سجل في ذاكرة أيامه ، تقاليد ذات رمزية
خاصة امتدت لقرون عديدة ، ولا تزال ، وضمنها تلك
الحركة الوثيدة المرتعشة والصامتة لوضع الخاتم في الأصبع
التي ترسخت منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، ولا يزال
يقوم بها ليومنا هذا ، ملايين الخطاب بمختلف مناطق الكرة
الأرضية . . إن لتلك القطعة الدائرية ، ذات السحر الخاص
والدلالات الثرى ، تاريخ خاص ومميز . . ●

« الملكة فيكتوريا ، رائدة عصر النفاق الاجتماعي خلال قرن
كامل . »

زواج بالمراسلة

من  يصدق في أيامنا ذلك ؟! ذاكرة التاريخ تؤكد أنه كان أسلوبا متبعاً ، بل ومستحباً منذ زمن بعيد . . وكان لرسائل الأوراق الملونة المهرية مع الخدم أو الوصيفات أو الصاحب أو رجال الدين ، كان لهذه الرسائل طعم المطر الذي يداوي تشنجات الروح . . ثمة مشاهير كبار تزوجوا بهذه الطريقة ، نقدم هنا نماذج عنهم . .
للأوراق الملونة ، الناعمة الملمس والشفيفة ، تاريخ قائم بذاته. فقد كانت رسولا أميناً هربت من خلاله عواطف نبيلة

لرجال طوح الوجد بكبريائهم .. وإذا كانت أجيالنا الآن تنظر بعين المكر و «الإستهزاء» لمثل هذا الفعل، فقد كانت النسوة - لعهد قريب - تخبثن فرجهن حتى تضيئه شمعة يتيمة في ليل صامت وحالك . وكان العديد من الرجال يهرب برسائل الحبيبات إلى شساعة البراري أو ظلمة الدهاليز أو خلف باب مغلق جيدا لغرفة فارغة ..

«هل تقبلينني زوجا ؟!» ، هكذا أبرق جون كيندي (الرئيس الأمريكي المقتال سنة 1963 بأحد شوارع مدينة دالاس) ، إلى الفتاة التي اختارها رفيقة حياته ، التي عرفت فيما بعد ب : «جاكلين كيندي» ، والتي بعد تمنع ودلال ، حزمت حقائبها والتحقت بسفينة أحلامه ..

أما الطبيب العالمي «لوي باستور» ، فقد تزوج بطريقة مخالفة تماما ، إذ لم يكلف نفسه عناء الكتابة إلى الفتاة التي «ارتضاها» زوجة له ، بل كاتب مباشرة ولي أمرها ، في رسالة مطولة ، عدد فيها مناقب العائلة التي ينوي مصاهرتها ، مثلما عدد فيها مزايا «ماري رولان» من جمال وحسب ونسب ، ولم ينس أن يذيل ذلك كله بكشف مفصل عن شخصه ومكانته العلمية المرموقة ، بل لقد قدم ورقة جانبية (تماما كما يفعل طالبو الوظائف الشاغرة في

أيامنا) ، تتضمن الاسم واللقب الكاملين ، وتاريخ الميلاد ومكانه ، ثم المستوى الدراسي والشهادات المحصل عليها ، وأخيرا دخله الشهري ..

وكان للرسائل دور أيضا ، في حياة الرسام «إنغرز» (عاش في القرن السابع عشر) الذي كانت رسوماته ورسائله المميزة ، تفتح طريقا معبدة ، سالكة نحو أفئدة حبيباته ، ورغم الألم الذي تجرعه في زيجتيه الأولى والثانية ، فإنه لم ييأس من تكرار العملية للمرة الثالثة ، حيث بعث من روما برسائل لإحدى قريباته بفرنسا ، لم يرها قط في حياته ، وضمن رسالة طلبه للزواج منها ، لوحة مائية تبرزه في وضعيات مضحكة .. ما أن توصلت «مادلين شابيل» البالغة من العمر 31 سنة ، بالطلب وباللوحة الجميلة ، حتى شدت الرحال إلى روما لتقارن بين الصورة والأصل ، فوجدته رجلا في كامل مشمسه الثلاثيني . . عيون حاملة هادئة ، وجه مسالم ، وفم عنوان رجولة حازمة . . بعد أيام قلائل سيقفان بكاتدرائية روما ، ويشرع القس في مراسيم الزواج ، التي اختتمها قائلا : « اليوم 4 دجنبر 1813 ، أعلن إنغرز ومادلين زوجين إلى الأبد » ..

وإذا كانت الملكات والأميرات ، هن الوحيدات اللواتي لا

يمكن إطلاقاً أن يخطبن أو يدق باب قصرهن لأجل طلب يدهن والزواج منهن ... بل هن اللواتي يقمن بالمبادرة ، كحال الملكة « فيكتوريا » بالملكة المتحدة ، والتي طبعت قرناً بكامله (هو القرن 19) ، بطباعها وسياساتها الحريائية ، حتى لقب عصرها بالعصر الفيكتوري ، الذي كان عنوانه الواحد الأوحدهو : « عصر النفاق الاجتماعي » . . إذا كان هذا حال نساء القصور اللواتي فتحن أعينهن على سجن النعيم الزائد عن الحد ، فإن تاريخ الزواج يطلعنا على جوانب أخرى ميزت باقي الزوجات في العالم ، وكانت نقطة مشتركة بين العديد من الحضارات وفي أزمنة متباعدة . . والتي هي هنا مؤسسة الوسيط . فاعتباراً لأن العائلات لا تزوج بناتها سوى لمن تم التأكد من أصله وفصله وحسبه ونسبه ، فإن بعض الحضارات القديمة كانت تفضل دوماً أن تفوض الأمر لوسيط ، حتى لا يشعر أي من الطرفين بالإحراج في حال عدم إتمام الزواج .. فالوسيط نوع من الدبلوماسي الذي يعرف بحذاقته وتجربته كيف يخطط مصالح العائلتين في عقد واحد مسترسل ... في الصين القديمة ، كانت العائلات الغنية تؤدي فواتير باهظة ، لمجرد أن تمتنع عن نفسها حرج الرفض وإكراهات

المواضعات الاجتماعية الأولى لقياس عيار العائلة التي تنوي المصاهرة، والتي قد تكون من العيار الثقيل مثلما قد تكون من العائلات الخفيفة الوزن في الميزان القيمي للمفاضلات الاجتماعية..

أما في حضارة «المايا» بالبيرو القديمة، فإن العائلات تلتجىء إلى مرسل هو نوع من «مؤسسة الوسيط» الذي يتكفل بتنظيم حفل حاشد يجمع فيه العائلتين معا، مثلما يتكفل بإعداد طقوس اللقاء ومأدبة الأهل.. والأهم أنه في لحظة من اللحظات يقف مثل «دلال» ويشرح - بصوت مرتفع - في عرض الأثمنة التي تقترحها عائلة العريس «مهرا» للعروس. ويرد عليها بجواب عائلة العروسة والثلثين المقابل الذي تطالب به هي.. ويستمر في عملياته هذه حتى يصل الطرفان - بعد تدخلات منه لتقريب الأرقام - إلى نقطة الاتفاق التي لا تراجع بعد ذلك حولها.

ولأن الزواج مجال رموز بامتياز، فإن التاريخ شاء أن تكون بعض الهدايا ذات رمزية خاصة.. وأول هذه الهدايا وسيدها على الإطلاق هو خاتم الخطوبة ثم خاتم الزواج.. فهما تلخيص لسحر خاص وعنوان لشخصية الذي يلبسهما.. ولو قيض للإنسار القديم أن يبعث من جديد، لاستغرب أيما

استغراب لهذه الأهمية التي أعطيت ولا تزال تعطى لتلك القطعة الدائرية المصنوعة من فضة أو من ذهب ، والتي توضع على جهة منها أحجار مختلفة الأشكال والألوان .. ولاستغرب ذلك الإنسان القديم كيف أن البشرية منذ قرون وإلى اليوم ، تربط مثلاً أحجار الماس في خاتم الخطوبة بالوفاء والحب الأبدي، بينما أحجار الزمرد تعني السلطة وقوة الشخصية معجونة بوفاء نادر .. أما أحجار «سفير» ، فإنها عنوان الصراحة وشجاعة إبداء الرأي .. فيما أحجار الياقوت الحمراء تعني الجمال والنخوة والإباء ، وخص الحب الخالص الصافي بأحجار الطوباز ، أما اللؤلؤ فهو حجر الليونة الأنثوية الباذخة . . ●

« الله يجعل الغفلة بين البائع و الشاري . »

« دولة العشاق »

نصل الآن بشكل من الأشكال الى مريط الفرس في تاريخ الزواج .. أي الى تلك الوثيقة التي تسمى « عقد الزواج » والتي تفصل بين زمنين وعالمين ، عالم العزاب وعالم المتزوجين . . وفي تفاصيل تاريخها تظهر أكثر، ثقافة كل شعب على حدة منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا . .

وسنكتشف هنا عمق النفس البشرية وكيف تطورت منذ الأزمنة الغابرة ، مثلما سنطل على قارات وتفاصيل لم نكن

نعتقد أنها مرت بحياة البشرية . . .

« عقد الزواج » (أو « عقد النكاح » كما سمي في الثقافات العربية والإسلامية وكل الدلالة المتضمنة في هذه التسمية ، حيث الفرق اللغوي والدلالي واضح بين الزواج والنكاح) ، هو العقد الذي عنده ينتهي زمن نفسي وسلوكي ، ليبدأ زمن آخر جديد ، نفسيا وسلوكيا . .
فعنده تنتهي إمبراطورية العزوبية ، لتبتدئ دولة الزواج . . وكل الجد اللازم ، فعقد الزواج تاريخيا ، هو أول الوثائق الديمقراطية التي ابتدعتها البشرية في العلاقة بين أفرادها . . وكيف لا تكون هذه الوثيقة مثقلة بروح الديمقراطية الغالية وهي العهد المكتوب (بالأسود في الأبيض) الذي يحدد الحقوق والواجبات في دولة يؤسسها كائنان بشريان وكتلتان حراريتان مختلفتان (لكنهما متكاملتان وضروريتان لأجل إشعال نور الفرح في الأيام الباردة) . ولو شئنا أن نذهب بعيدا ، جازلنا أن نعتبر « عقد الزواج » الدستور الأسمى في « دولة العشاق » ، فيه تحدد مقدسات الدولة التي لا يجب التفريط فيها ، حتى لا ينفرط عقد الأحلام المنظوم ، وحتى لا يتسرب التشقق لسرير الزوجية .. مثلما تحدد فيه قوانين العلاقات بين

مختلف أطراف الدولة الجديدة ماليا وتسييرا من مداخل ،
و « خراج » وكذا طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون مع
الخارج الذي تربط الدولة الجديدة به مصالح القرابة أو
مصالح الإرث . .

هل كان تاريخ هذه « الوثيقة الديمقراطية » مطابقا لوضوح
وشفافية الصورة التي قدمناها فوق ؟! في الواقع ، لم يكن
الأمر مشابها لها تماما . . ومن الآن نؤكد على ضرورة
التمييز في تاريخ هذه الوثيقة بين مرحلتين : مرحلة العهد
القديمة (التي كانت سائدة فيها أنظمة اقتصاد فلاحية ،
إقطاعية ، فيودالية) ، ومرحلة ما بعد عصر النهضة
الأوربية (حيث أصبحت الأنظمة الإقتصادية تجارية
وصناعية) ، وهذا التمييز الأولي يبرز لنا بجلاء ارتباط
تحرير هذه « الوثيقة الديمقراطية » بالجانب الإقتصادي
أساسا ، أي ذلك الجانب « المصلحي » (بين قوسين) بين
طموحين يسعيان إلى تحقيق ذواتهما في الحياة الفانية . .

حضور هذا الجانب المصلحي كان الطاعني والبارز ، لأنه
الأكثر تكرارا في تاريخ الزواج . . وهو لا يلغي بأي شكل
من الأشكال أن « عقد الزواج » كان أيضا - ولا يزال -
وسيطا ، قنطرة من حرير عند الكثيرين من مواطني «دولة

العشاق « لأجل العبور نحو هناء الرفقة الطيبة .

أول عقود الزواج التي احتفظ لنا بها التاريخ . كما يشير الى ذلك كل من « فيليب أربي وجورج دوبي » في كتابهما الضخم : « تاريخ الحياة الخاصة » . تعود الى عهد الفراعنة ، وبالتحديد إلى 900 سنة قبل الميلاد ، وكانت هذه الوثائق لا تحرر أحيانا سوى بعد سنوات طويلة من الزواج . والغاية . كانت تحريرها احتياطا وتحسبا للطلاق أو موت أحد الزوجين . على أن الاستفادة الأكبر من توفر هذا العقد هو الزوجة ، لأنه يوفر لها حق الإرث بعد الطلاق أو موت الزوج . . ولقد كانت هذه الوثيقة أكثر عقود الزواج « ديمقراطية » في تاريخ البشرية ، في الأزمنة الغابرة . اعتبارا لطبيعة الزواج نفسه في مصر الفرعونية الذي كان وحدة بين رجل وامرأة اختارا بعضهما البعض . بالتالي كان الوثيقة « القانونية » الوحيدة التي تلحم رباط تلك العلاقة أمام مؤسسة المجتمع والعائلة . .

لقد كان يحدد (بالأسود في الأبيض مرة أخرى) ما للرجل من حقوق ، وما للمرأة من حقوق أيضا ، مثلما يحدد ما عليهما معا من واجبات . كانت تدون ممتلكات كل واحد منهما قبل الزواج ، مثلما كانت تحدد حقوق الزوجة التي

من حقها التوصل بها في حياته وبعد مماته .

ومن النماذج التي توصل إليها الباحثون المتخصصون في الحضارة الفرعونية . نموذج لعقد زواج بين زوجين في مصر القديمة كتب فيه : «لقد عقدت عليك زوجة لي ، ومنحتك كذا وكذا .. وإذا ما طلقتك ، أو إذا ما خنتك .. أو سئمت منك ، أو حاولت الارتباط بامرأة أخرى ، سأمنحك كذا وكذا ، مثلما سأمنحك ثلث ما جمعهنا معا في عشرتنا الزوجية . . . »

في روما - وقبلها في أثينا - وجدت «وثيقة مهر» ، كانت نوعا من « عقد زواج » ، لكنها لم تكن وثيقة ذات إلزامية قانونية أو دينية . فالزواج كان أمرا عائليا محضا وليس أمرا مجتمعيا واجتماعيا يهم المجموعة البشرية التي ينتمي إليها العرسان . .

كان العرف السائد عند الرومان ، أساسا ، هو التفريق بين مصالح العائلتين من خلال التفريق بين مصالح الزوجين ، مثلما كان إلزاميا تقديم مهر يكون إما نقودا أو أفرشة أو مباني أو عقارات . وفي مقابل المهر الذي يقدمه والد العريس (وليس العريس نفسه) إلى عائلة العروسة ، فإنه يطالبها بإعطائه رهنا يكون ضمانا بين العائلتين .

لذلك ، كثيرا ما وجد علماء الآثار والمؤرخون مباني أو
قطعا أرضية كتبت عليها عبارة : « أرض مرهونة بكذا
وكذا ، لقاء مهر زواج قدم لعائلة العروسة الفلانية من عائلة
العريس الفلاني . »

في مرحلة لاحقة سيقصر الزواج على أن يقدم العريس
مهرًا لعائلة عروسه ، دون حاجة لضمان منها . . لكن الجديد
أن المهر هذا أصبح نوعا من الثمن الذي به يشتري
العريس عروسه . . وهنا كانت « سوق النخاسة » ذات
أسهم مرتفعة . . .

وكثيرا ما كان الشعار السائد في هذه السوق هو : « الله
يجعل الغفلة بين البايع والشاري » . . واللواتي يكن
محظوظات بين صف العروسات الطويل ، هن اللواتي
سيحصلن على مهر مضاعف ، واحد من العريس وآخر من
ولي أمرها .. وسيسجل كل ذلك في وثيقة مكتوبة ذات قوة
قانونية هي نوع من « عقد الزواج » الذي يميز بواسطته بين
زواج شرعي ، وبين مجرد زواج متعة .

ومن مميزات هذا العقد الروماني أيضا ، أنه ما كان
ليهتم بشكليات وحيثيات تصريف الحياة اليومية للزوجين في
حياتهما ، بقدر ما كان يهتم أيما اهتمام بتحديد مآل التركة
والإرث ، بعد وفاة أحد الزوجين . . ●

« القطط المستعملة بالماء الدافئ ، تغشى دوما الماء البارد . ! »

زيجات المصلحة . !

« عقد »
الزواج» الذي قلنا عنه إنه أول وثيقة ديمقراطية
في التاريخ ، له حكاية خاصة في التاريخ
العربي الإسلامي ، فهو أقدم - في الإطار الديني - من
العقود التي كانت عند الأوربيين ، الذين يميزون بين
« الزواج الديني » و « الزواج المدني » . وحكاية هذه
الوثيقة الديمقراطية في عالمنا الإسلامي ، ستكون موضوع
بحث خاص لاحقا عن « تاريخ الزواج في العالم العربي
والإسلامي » .

قلنا أيضا : إن « عقد الزواج » الذي يعتبر مرتبط الفرس في كل علاقة بين رجل وامرأة ، والذي يفرق بين عالمي العزوبة والزواج ، له علاقة وطيدة بالتطور الإقتصادي الذي شهدته البشرية في تاريخها الطويل . . وكان هذا العهد بالتالي مرتبطا أيضا ارتباطا بالمصالح العائلية لعائلي العروسين . . هكذا ، فخلال قرون عديدة ، كانت علاقات المصاهرة علاقات مصالح إقتصادية ، تجارية ومالية . . وكان لابد من وضع إطار يحمي انتقال بعض الممتلكات والحقوق من هذه العائلة إلى تلك . .

في أوروبا القرون الوسطى ، كان الزواج الذي لا ينبت الذرية في حقل العائلة الجديدة ، يلزم الزوج بإعادة المهر ، فيما يعيد أهل العروسة عطايا الزوج . . ولم تتغير أمور الزواج سوى فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلادي ، حيث بدأت الكفة تميل نحو علاقات إقتصادية جديدة في أوروبا هي ما عرف فيما بعد بالتحول من الإقطاعية والفيودالية الفلاحية المرتبطة بالبيادية إلى نظام المدينة ، حيث المنطق التجاري والصناعي ، هو الغالب والمتحكم ، وهو الذي يضبط سيلان العمولة ، وبالتالي يوجه دفقة المصالح بين الأفراد والجماعات .

كانت النتيجة « المنطقية » التي ارتضتها جميع الأطراف آنذاك أثناء تحرير « عقد الزواج » ، هي الفصل فصلا بائنا بين ثروة الزوجة وثروة الزوج . . وكان منطق المحاسبة هو السائد في تسيير وتصريف الحياة اليومية للزوجين ، وذلك ضمن العائلة الأكبر التي تتقاطع مصالح العيش تحت نفس السقف ، مع مصالح العائلة الصغيرة الجديدة ، ولم يتم التفريق بين مصالح الطرفين بشكل نهائي وجازم إلا في سنة 1450 ، حيث أصبحت « عقود الزواج » المجال الذي من خلاله تتحقق هذه الإستقلالية ، وأصبحت الغلبة لنظام الزوجية على حساب نظام « العائلة - الأم » . ذلك أن نظام الزوجية يخدم أكثر مصالح التجار والصناع بالمدن الذين أصبحوا هم الطبقة الغالبة والقوية في المجتمع . . لقد كان ذلك مقدمة نحو مجتمع الفردانية و « العائلة - النواة » التي تبلورت بعد ذلك بقرون . وفي هذه الفترة ، بدأت تظهر مكانة الزوج / الرجل كناظم ومتحكم محوري في العلاقة الزوجية ، حيث صارت الكلمة الفصل كلمته ، لأنه مانح « المهر » ، والمشرف المباشر على الثروات (المالية والعقارية) . . والقيد الوحيد الذي كان يقيده هو التنصيب في « عقد الزواج » على إلزامية استشارة الزوجة في

تصرف الثروات التي يحصل عليها بعد الزواج . .
لابد من الإشارة أيضا أنه في سياق هذا التطور الذي برز
وتجلى في إطار تحرير «عقد الزواج» ، سيظهر دور هام
لمؤسسة جديدة تجاوزت حتى دور الكنيسة التي كانت تعتبر
أنها المؤسسة الوحيدة الوصية على قدسية الزواج ، التي هي
مؤسسة «العدل» . فقد أصبح توقيع الزوجين على عقد
الزواج مرحلة متقدمة تجاوزت زمن الوصاية العائلية الذي
كان سائدا من قبل ، وأصبح المشرف المباشر على عملية
التوقيع هذه والمصادق عليها ، هو «العدل» ، لقد أضحي هو
المزوج بدلا من الكنيسة ، وهو ما عكسته حتى بعض
الأعمال الأدبية آنذاك ، مثل الفصل الأخير لمسرحية «حلاق
إشبيلية» التي عرضت سنة 1773 ، والتي يظهر فيها
العدل وهو يزوج «روزين» بالكونت «ألفيفا» ، والتي وقعا
فيها وثيقة «عقد الزواج» ، وهو التوقيع الذي يفتح المجال
أمام دق طبول الفرع ..

ولأجل «إنقاذ» حقوق المرأة ، أعلن في العصور الوسطى
عن عدم جواز التصرف في المهر ، وإلزامية تقديمه من قبل
الزوج . . لكن هذه القوانين سيتم تجاوزها مع مطلع القرن
الخامس عشر ، حين طلب بعض تجار المدن الفرنسية

والإيطالية والشمال الإسباني من ملوكهم المتعاقبين ، إلغاء
عدم جواز التصرف في المهر والزاميته على الرجل .. ولقد
تحقق لهم ذلك سنة 1644 .. فحين اندلاع الحروب
الكلامية بالبرلمان الفرنسي بين المؤيد للإلزامية المهر ،
والمعارض له في إطار إعداد مدونة الأحوال الشخصية ،
كانت الغلبة للفريق المطالب بالمحافظة على ذلك النظام
القديم .. وسيتراجع هذا النظام الذي كان ينص عليه ضمن
عقد الزواج ، شيئا فشيئا مع مطلع القرن 19 ، وستكون
سنة احتضاره في سنة 1965 ، أي خمس عشرة سنة بعد
منتصف القرن العشرين .

في الواقع - تقول «سابين داكوستا» في مقدمة كتابها :
« تاريخ الزواج » الصادر سنة 1994 - كانت النقط
المنصوص عليها في وثيقة « عقد الزواج » نقطا تحمي
الزوجات .. وكانت هذه الوثيقة سلاحا قويا في أيديهن مع
بداية عصر النهضة .. مثلا في ديسمبر 1794 ، ستتزوج
القاتنة « طيريزا كابرولس » التي زومت قلب « طاليان »
القائد الإيطالي الكبير ، وفي عقد زواجها سيتم التنصيص
على التمييز بين ثرواتها ، مثلما سيتم التأكيد على أن لها
الحق الكامل في حال الطلاق أو في حال الترميل ، في ما

قيمته 12 ألف ليرة . . ولا بد من التذكير هنا أنها
كسبت من وراء زواجها الأول مع « الماركيز دوفانتاي » ،
الذي طلقت منه ، مكاسب مالية ضخمة وقطعة أرضية
أكبر . فالقطن المستحمة بالماء الدافئ تخشى دوما الماء
البارد . وما حدث مع الفاتنة « طيريزا » سيحدث مع «
جوزيفين ديوهارني » زوجة الجنرال « بونابارت » سنة
1796 ، حيث كان « عقد الزواج » مجرد عقد لضبط
المصالح بين الطرفين .

فقط ، بودنا أن نشير إلى أنه في نفس اللحظة التي
كانت تتم فيها زيجات المصالح هذه (وكانت هي الغالبة ،
لأن الزواج تحول في قرون الفقر تلك إلى استثمار وحساب
مصالح) ، وتحت نفس السماء ، كانت تتم زيجات أخرى
شرطها الأول والأخير ، هو إنسانية الإنسان ، واستحقاق
« النضال » لأجل الظفر برفقته .. يكفي أن نشير فقط إلى
واحدة من هذه الزيجات ، والتي لا يزال « عقد زواجها »
نموذجا تاريخيا راقيا وباذخا . . . وهي زواج « ولفغانغ
أماديوس موزار » (الموسيقي العالمي الكبير) والرائعة
« كونسطنس ويبر » اللذان وقعا ليلة السبت 3 غشت
1782 عقد زواجهما الخالد . . ●

« ما أجمل صناديق العروسة ، تلك التي ينحت فيها أسد
منتش بوقفته الملكية . ! »

« صندوق العروسة »

للهدايا تاريخ ، مثلما لها قوتها الرمزية التي لا يتناطح حولها عثران ، كما يقول فقهاؤنا الأجلاء . هذا التاريخ وتلك الرمزية ، نفتح بابها ، لنخطو أولى الخطوات في باحتها الواسعة . . ورفقة من هذا القبيل ، لا يمكن إلا أن تكون رفقة معطرة بأريج خاص ، مثقل بعبق إنساني صاف ونادر . .

فذاكرة العشاق والمحبين ، هداياهم . . تكون هذه الهدايا صامتة ومحايدة في يتمها بواجهات المحلات التجارية ، لكن



ما أن تمسها يد الفرع حتى تتحول إلى شيء نفيس ، ستزداد قيمته الرمزية حين يُهْرَبُ من خلالها كلام كثير غير منطوق ، بعيدا عن أعين الرقباء . . .

لهذا السبب ، كانت ، ولا تزال ، وستظل ، هدايا الزواج كلماتٍ غالية ، غير منطوقة ، مدلاة كأهداب الشجر العتيق في باحة الذاكرة الواسعة المضاءة بالنخوة والفرح . . ومنذ أقدم العصور كانت الهدايا ، الرسل المرموزة لعواطف نبيلة . . من هذه الهدايا ما أصبح لها تاريخ جليل ، مكنها من أن تقتعد ذاكرة التاريخ في متاحف عالمية كبيرة .

ولأن لكل واحد طريقته في البوح عن مكنوناته ، تماما كما للجسد عشرات الطرق في إبداع ألمه وفرحه وأحزانه عبر رقصات ، لا يوحد بينها غير الرغبة في معانقة الريح واللعب مع أشباح الأمانى . . إذا كان الأمر كذلك على هذا المستوى الرمزي (الغاية في اللبس) ، فإن الرمزية التي تعطى بالتالي للهدايا في حفلات الزفاف ، تختلف من حضارة لحضارة ، ومن زمن لزمن . .

في اليونان القديمة (على عهد هوميروس) . . كان طالب الزواج يقدم - إلزاما - هدايا لصهره وليس للعروس التي ستصبح بعد ذلك رفيقة أيامه . . وفي مقابل ذلك ،

تتكفل عائلة العروسة بكل الهدايا التي ستقدم لها والتي سترافقها ، إلى بيت الزوجية ، بذلك تكون هدية العريس أشبه بحمام زاجل يذهب برسالة رمزية ، ليعود محملا برسائل أخرى أكثر رمزية .. وكلما كانت الهدية الأولى غاية في الفتنة ، كلما كان لزاما أن يكون الرد أروع .

هدايا ذاك الزمن البعيد ، كانت أثوابا فاخرة في غالبها الأعم ، حيث الحرير سيد ، وحيث أثواب الساتان المستوردة من بعيد ، وقطع الكشمير القادمة من مرافئ بعيدة ، ذات رمزية لا تضاهي .

قرونا بعد ذلك . . ستحتل مقدمة فيلق الهدايا ، هدايا أخرى بعيدة عن غنج حوافي الحرير . . حيث أصبحت الهدايا المقدودة من خشب أو من زجاج ، هي التي تحتل مقدمة الموكب ، تماما مثل أميرة قمشي بدلال ، وتتبعها باقي الهدايا كوصيفات ، لا يعدو دورهن أن يكون مجرد تأييد ضروري وجميل لعالم الأميرة ..

لقد برز بشكل لافت ، ما سمي بـ « صندوق العروسة » الذي كان يصنع من خشب (من النوع الرفيع) ، يزين بمئات الأشكال ، ويغطي بعشرات الأنواع من الأثواب والجواهر والمنحوتات النحاسية أو الفضية أو المذهبة . يسلم هذا

الصندوق في الصباح الموالي لأول «ليلة غسل» يقضيها العريسان معاً . الليلة التي يخرس فيها كل الكلام ، لتتكلم الأجساد لفتها الإنسانية السامية التي يشعل كهرباؤها كل شمس الأرواح الدفينة . لقد كانت هذه الصناديق مفخرة العروس . . وكلما كانت العائلة من « علية القوم » (بمنطق المفاضلة الذي عاشته القرون الغابرة) ، كلما كان الصانع من الصانع الخاصين ، المميزين الذين تصنع أصابعهم مفاتن خشب ، تزينه منحوتات تمثل نماذج للحياة الزوجية . حيث الرجل في الحقل مثلاً ، أو الأطفال عند المدفأة أو الزوجة واقفة تتأمل مفاتنها أو تُسَرِّحُ خصلات شعرها أمام مرآة الروح . . وقد تتضمن بعض هذه الصناديق منحوتات من ذهب ذات دلالة دينية غاية في القداسة . . أما أجمل الصناديق الخشبية ، فهي تلك التي ينحت فيها أسد منتش بوقفته الملكية ، دلالة على القوة والشجاعة . أو تلك التي نجد في جوانبها صوراً لذلك الحصان الأسطوري الذي كان يعتقد الأقدمون أن له قرناً في وسط الغرة على الجبين ، والذي كان دليلاً على الصفاء والعذرية ..

هذه «الصناديق» التي كانت عادة منتشرة في كل دول حوض البحر الأبيض المتوسط ، بما فيها المغرب الذي إلى

حدود منتصف الخمسينات من هذا القرن ، كانت عادة إهداء مثل هذا الصندوق ، عادة جد منتشرة في مدننا العتيقة وفي قرى بوادينا المغربية الشاسعة . . نقول إن هذه الصناديق لا تزال محفوظة ، معلقة ، في أغلب متاحف أوروبا . . وأكثرها روعة وقدماء تلك التي توجد بمتحف مدينة « فلورانس » الإيطالية .

تقول « سابين داكوستا » في كتابها : « تاريخ الزواج » الصادر سنة 1994 ، إن العادة بأوروبا ، كانت أن تجمع كل الهدايا التي يقدمها العريس لعروسه فيما سمي بـ « سلة الزواج » . . وهي عادة قديمة ، كان الخاطب يضع فيها كل هداياه لخطيبته في سلة من السُوحَر المصنوعة من أوراق شجرة الصفصاف السامقة .

أما في بيت العروسة ، فيكون وصول الهدايا مناسبة لحفل فرح يكاد لا ينتهي ، لأن العادة شاعت أن لا يبعث العريس كل هداياه دفعة واحدة . . بل عليه أن يبعثها هدية إثر هدية . وبين الهدية والهدية ، لابد أن يكون ثمة زمن انتظار مستفز ، يجعل العروسة والعائلة وصديقاتها وكل أحبابها ، ينتظرون شكل الهدية القادمة ونوعيتها . . وكثيرة هي صرخات الإعجاب والمفاجأة التي تطلقها الفتيات

المنتظرات وهن يكتشفن ساعة يدوية غاية في الروعة ،
تضبط جيدا توقيت دقائق قلب المحبوبة ، أو حين يكتشفن
قطعة زمرد تسيل ماء « عين المها » إعجابا وتقديرا ، أو
حين تبزغ من بين ثنايا سلة الهدايا ألبسة باذخة .. وأكثر
الأدباء الغربيين الذين وفقوا في مثل هذه الهدايا الروائي
« أوسكار وايلد » ، الذي أهدى لحبيبته « كونسطنس » أثوابا
مزينة بتخريمات حريرية باذخة ، مرفوقة بحزام موشى بخيوط
مذهبة ، كتلك الأحزمة التي لمجدها مدلاة في أسواق مدينة
فاس العتيقة ، أو في الأسواق الشعبية لمدينة طنجة ..
وسيدة الهدايا جميعها والتي تتوج دوما ملكة على
عرشها هي الجواهر . . . ●

« شاء القدر أن تنتهي هدية هارون الرشيد ، فوق صدر أميرة
أندلسية ، تمشي الهوينا في كاتدرائية باريس ليلة زفافها . »

هدايا الأغنياء و الفقراء ..

شيء في تاريخ الهدايا استطاع أن يحتل الموقع الذي احتلته الجواهر في ذاكرة العشاق والأزواج.. لكن هذه الذاكرة كثيرا ما سجلت أيضا أن الحللي ولمعان الجواهر، لم يكن فرحا مشاعا بين كل بنات حواء، بل منهن من اكتفين بلذة خاتم الزواج طيلة حياتهن ، قانعات بصفاء رفقة الأيام الهنية . . ويحدث أيضا أن تفرض المواضعات الإجتماعية ، ونظام مفاضلاتها القيمي على العريس (أو أساسا على عائلته) ، أن يختار لزاما حلليا، هدايا للزواج ..

هنا تحظر في تاريخ الزيجات في أحقاب عصر النهضة ،
الأقراط المذهبة والدمالج المخرومة أو المشابك الماسية
اللامعة ، والتي تزين بأشكال هندسية ذات ارتباط بشكل
الصليب المسيحي .

أشهر هذه المشابك ، ذاك الذي برزت به الملكة فيكتوريا
على مئات المدعوين لحفل زفافها مع الأمير ألبر الذي
أذاقته الأمرين ، هي التي عرف عنها الجبروت والأحابيل
الماكرة ، والتي لقب عصرها - كما قلنا سابقا - بعصر النفاق
الإجتماعي . . كان المشبك مخروما بأحجار من أنواع أحجار
السفير الباهظة الثمن .. أما نابليون الثالث الذي كان يذوب
وجدا بأميرة إسبانية ، فإنه لم يتردد في إهدائها جوهرة
باذخة كانت في ملك «شارلمان» ، القائد المسيحي الكبير ،
والتي أهداه إياها الخليفة العباسي هارون الرشيد .. كانت
الهدية عبارة عن طلسم مزين بأحجار سفير ، أضاف إليها
شارلمان صليبا مدلى من اللؤلؤ .. والتي لم يكن هذا القائد
الأوربي يزيلها من فوق صدره ، بل كانت نوعا من النياشين
التي حرص على الإفتخار بها حتى مماته . وشاء القدر أن
تنتهي هدية بغداد على منحنى صدر أميرة أندلسية، كانت
تمشي الهوينا في كاتدرائية باريس ليلة زفافها ..

كان جهاز العروس الذي تعده عائلتها وتبعثه معها في القرون الوسطى ، من أكثر الأشياء التي تحرص العائلات على أن لا تزل فيها قيمتها المقرونة بالكرامة في المجتمع . . فقد كان هذا «الجهاز» عنوانا على مكانة تلك العائلة إجتماعيا . . وكان تحضيره ، ثم بعثه بعد ذلك مناسبة للتباهي والتسابق في ابتكار أسباب الإعجاب والفتنة .. ولم تكن المقولة التي تقول : «مسكين خدا مسكينة ، واتهنات المدينة» ، لم تكن هذه المقولة عملة سارية في تلك المجتمعات الفلاحية القديمة ..

في الأوساط الأرستقراطية مثلا ، يحدث أن يضاف لهذا «الجهاز» المكون من الأثواب والألبسة والأواني والأفرشة ، الجواهر أو التحف الفنية الرائعة لأجل إبهار عيون الكائدين والحساد والغرماء .. نذكر هنا مثلا : زواج الإيطالية الفاتنة «إيبوليتا سفورزا» من القائد «ألفونس دارانيون» سنة 1465 ، والتي سارت بخبر «تجهيزها» الركبان ، وذاع صيته في التاريخ ، لأن من بين أثوابه الفاخرة فستان زين ب : 8966 لؤلؤة صغيرة .. بينما تذكر كتب التاريخ أيضا أن الشهيرة «كاترين دوميديس» كانت قد زوجت ب «جهاز» فلورانسي محض ، ضم أثوابا من الحرير الأسود الناعم

والفساتين المغناج وقبعات مطرزة بأحجار الزمرد
واللؤلؤ ..

لا بد أن نشير في سياق حديثنا عن مكانة الهدايا ، ضمن
تاريخ الزواج إلى أن الهدية التي أصبحت الآن في الثقافات
المعاصرة ، مرتبطة أساسا بالشخص باعث أو مقدم
الهدية ، حيث أنها رسول بليغ ، يلخص الكثير مما لو يود
قوله لمن يتوجه إليه بتلك الهدية ، سواء كان رجلا أو
امراة .. مما يعني أن الهدية في زماننا الآن تنخرط في نظام
المجتمعات الاستهلاكية التي تنتصر لمبدأ وخيار الفردانية . .
نقول إذا كان هذا موقع الهدية في ثقافتنا ومجتمعاتنا ، فإن
الموقع الذي كانت تحتله تاريخيا في حياة الشعوب منذ أقدم
العصور ، ليس مشابها على الإطلاق . . فالهدية (وهي هنا
هدية الزواج) جزء من نظام جماعي ، لذلك كانت بشكل من
الأشكال عنوانا للمفاضلة وللфخر الجماعي (العائلة ،
القرية ، القبيلة ، الحي ..) ، ولم تكن تعني بأي حال من
الأحوال مجرد رسالة مرموزة لفرح يولد ويترععرع ويرقص بين
كائنين بشريين ، وكتلتين حراريتين .

ولهذا السبب أيضا ، كلما كانت هدايا اليوم صغيرة
ومحدودة الأدوار، وقيمتها في بساطتها وفنيتها ، كلما نجد

عند الحضارات القديمة تحقق شرط الكثرة والتنوع والضخامة .. لقد كان من بين هذه الهدايا التي تقدم للعروسة ، في القرن الخامس عشر مثلا ، والتي تحرص العائلة على إبرازها في عربة يجرها حصان مزين بالدانتيل الملونة ، سرير الزوجية ودولاب الملابس والأفرشة والأغطية والأواني المطبخية وأواني الزينة ، وكل ما يرتبط بتأثيث بيت الزوجية الجديد . . (نفتح هنا قوسا لنحيل القارئ المغربي على عادة مماثلة لا تزال حاضرة عندنا في بلادنا ، والتي نطلق عليها : « الهدية » . . فالعملية هذه ذات جذور بعيدة في تاريخ شعوب البحر الأبيض المتوسط ، تعود لبدايات القرن الرابع عشر الميلادي ، حيث يؤكد « بيير أوديات » في كتابه : « 25 قرنا من الزواج » أن العملية كلها ، كانت تتم في جو أغان ورقصات احتفالية) .

كانت العادة أيضا ، أن تعرض أمام الضيوف كل الهدايا التي اقتنيت لأجل العروسة والعريس ، ليلة تحرير وتوقيع « عقد الزواج » . .

ولم يكن الضيوف يترددون في التوقف مطولا أمام الهدايا النفيسة المستفزة ، بل كان ذلك أمرا مستحبا ، لأنه كلما طال الوقوف وكثر، كلما كان ذلك دلالة على أن الهدايا

النفيسة كثيرة . . . وكان فضول الكثيرين والكثيرات يجعلهم واقفين مبحصىين أكثر في الهدايا الحميمة للزوجية ، والتي ليست شيئاً آخر سوى ملابسهم الداخلية . . . ومع انتهاء حفلة الزفاف ، يكون الجميع قد علم قيمة المهر وتنازلات آخر لحظة بين العائلتين ، ونوعية الهدايا وقيمتها ، ثم المكان والكيفية التي سيقضي بها العريسان أول لياليهما من ليالي العمر الطويلة . . . ●

« لا يجوز تلويث اليوم المقدس المخصص للعبادة ، بأفراح
الجسد . »

لقاح ضد الشهوة ..

لفكرة «المحرم» ، دور كبير في تقنين الزواج دينيا في الكنيسة المسيحية .



ذلك أن عادة تعدد الزوجات ، وامتلاك الجواري ومعاشرتهن ، كان تقليدا معمولاً به في الحضارات الأوربية القديمة (مثلا شارلمان ، كان له عدد لا يحصى من الزوجات وعدد أكبر من الجواري ، وكان كل القواد الأقوياء بقوة السلاح ينهجون نفس النهج) .. ولمواجهة هذه «الإباحية» عمدت الكنيسة إلى تقنين كل علاقة تجمع بين المرأة

والرجل ، وأدخلت الزواج ضمن طقوسها الدينية الكنسية ..
وبذلك أعادت للزواج تلك المسحة المقدسة ، التي كانت له
(لكن بطرائق وشعائر أخرى) ، في العهد اليوناني
والروماني القديم ..

كان الزواج قبل أن تصبح للكنيسة كلمة مسموعة فيه ،
زواجا مدنيا بالأساس ، ولم يكن زواجا دينيا . وإلى حدود
العهد الروماني الأول ، كان أمر تعدد الزوجات أو معاشرة
الجواري ، أمرا شائعا ومعمولا به . بل إن رقم النساء
اللواتي يتمكن الرجل من ضمهن إلى «مملكته» ، كان عنوانا
على القوة والفحولة . . وكان مبعث فخر خاص . ولمواجهة
هذه «الحرية الجنسية» ، التي كان من عناوينها البارزة
«الوحشية» ، ويسبب المشاكل الإجتماعية الكبرى التي
كانت تحدثها ، بدأت تبرز تلك الفكرة الدينية التي هي
«الزنا» ، وبدأت تترسخ كتجسيد للمحرم .

وكان أن أعلنت الكنيسة استنادا الى النص الديني ،
بضرورة تقنين تلك «الرغبات الوحشية» في الذات
البشرية . ومن بين هذه النصوص ، الآية الواردة في « سفر
التكوين » الإصحاح الثاني والتي تقول : « يغادر الرجل أباه
وأمه ويرتبط بزوجه ، ليصبحا جسدا واحدا » .. مثلما استند

منظرو الكنيسة وقساوستها على تلك الآية الواردة في
الأنجيل الثلاثة ، التي تقول : « ما وحده الله ، لا يحق
للإنسان أن يفرقه » .

كانت الكنيسة ، تنطلق من مبدأ أن الله خلق الإنسان
بالعدل في جنة الخلد قبل أن ينزل به للأرض ، وعلى هذا
الإنسان بالتالي ، أن يحافظ على تلك الصورة السامية التي
خلقه الله عليها .. هنا أخذت مبادئ العذرية والعفة وطهارة
النفس ، تسترجع الكثير من قوتها في نظام القيم الذي
عملت الكنيسة على جعله نظاما مقننا للزواج في بلاد
المسيحية .. وأصبح الزواج لقاحا ضد الشهوة والمعاشرة غير
الشرعية ، وكان الهدف هو تقنين الرغبات الجنسية في إطار
شرعي ، ليصبح الزواج واحدا من أهم وأكبر القيم المبجلة
في المسيحية الكنسية ، بل لقد كان على نفس المرتبة
السامية التي تجمع في المفهوم المسيحي - بين المسيح
والكنيسة الكاثوليكية .. ذلك أن إحدى فقرات إنجيل
« القديس بول » تقول : « أيها الأزواج ، أحبوا نساءكم كما
أحب المسيح الكنيسة » .

كانت قرارات الكنيسة هذه في زمنها ، ثورة حقيقية ..
لقد جعلت الزواج وحدة بين كائنين ، لا تنفصل ولا تسقط

تحت أي ذريعة كانت ، مثلما أكدت أن الزواج لا يمكن أن يكون مباركا وشرعيا إلا بموافقة الزوجين وليس بموافقة العائلتين ، وألغت الموافقة القبلية للولي ، الأمر الذي مكن عشرات العشاق من أن يظفروا بحبيبات القلب ، رغم معارضة عائلاتهم، وكان هذا انتصارا للمرأة ، في تلك الأزمنة البعيدة ، بين باقي الكائنات الحية ، مثلما ألغت وحرمت تعدد الزوجات وامتلاك الجواري .. ولم تتردد في الذهاب بعيدا في لائحة المحرمات ، مما تسبب في مشاكل أخرى فيما بعد ، ذلك أنها سنت قوانين صارمة في إطار «الزواج الديني» (نطرح هنا دوما مفهوم «الزواج الديني» في مقابل «الزواج المدني» الذي سنعود إليه لاحقا) ، فيها يتعلق بقربة الدم ، حيث حرم الزواج من الآباء والأمهات ، أو الآباء بالتبني ، وحتى الآباء الروحيين ، مثلما حرم الزواج من أبناء العم وأبناء الخال ، وأن الزواج منهم لن يك زواجا مباركا ، إلا بعد الجيل السابع من أبناء العموم كما منع على الأخوين الزواج من الأختين ، وهي القوانين الصارمة التي خلقت مشاكل كبرى في المجتمعات الفلاحية القديمة ، حيث كانت التجمعات البشرية مركبة أساسا من عائلات ذات قرابة دم .

كانت الكنيسة ، أيضا ، تحدد فترات خاصة في السنة للزواج ، وكل زواج خارج تلك الفترات ، ليس مباركا ولا يدخل ضمن نظام زيجاتها الصارم . لقد وضعت يومية محددة تراعي المحرمات الكنسية أو الشهور التي يتطير منها أصلا المخيال الشعبي ، (مثلا ، كان الرومان يتطيرون من شهر ماي الذي يعتبرونه شهرا كارثيا ، فهو شهر الأشباح الذي يحتفل فيه الموتى ، وكان الإنجليز - خاصة في بلاد الغال - يرون أن القمر في هذا الشهر يكون أصفر حجما ، ولم يكونوا يجيزون الزواج سوى بعد ميلاد هلال جديد) .

كانت الكنيسة تحرم الزواج في أوقات وفترات وشهور الندم والتوبة ، وهي جد محددة في اليومية المسيحية مثلا : من يوم ميلاد المسيح حتى عيد الغطاس ، ومن يوم الصوم الكبير حتى أعياد الميلاد الثمانية والأسابيع الثلاثة قبل أعياد جون باتيست .. الخ . مثلما يحرم الزواج يوم الأحد وفي الأعياد ، لأنه لا يجوز تلويث اليوم المقدس المخصص للعبادة ، بأفراح الجسد .

ويحرم الزواج يوم الجمعة أيضا ، لأنه يوم وفاة المسيح وهو يوم صيام . أما يوم الأربعاء فهو يوم نحس وكذا يوم الخميس . فيما يخص يوم السبت للعذراء مريم ، مما يجعل

الأيام المتبقية التي يجوز فيها الزواج هي أيام الإثنين والثلاثاء .. ولأنه لابد لليلة الزفاف من استعداد ، شاء العرف أن يكون يوم الزواج عند المسيحيين في القرون الغابرة ، هو يوم الثلاثاء ، أما يوم الإثنين فهو يوم الإستعدادات فقط ، وإذا ما ألفينا الشهور الخمسة ، من يونيو حتى أكتوبر ، التي يكون فيها الجميع في الحقول لجني الثمار أو الإعداد لموسم فلاحي قادم ، فإن ما يتبقى للزواج هو شهران في السنة فقط .. وبعملية حسابية بسيطة ، فإن يومين في الأسبوع وشهرين في السنة ، يجعل حصيلة الأيام التي يجوز فيها الزواج هي 16 يوما في السنة فقط !! .

و إذا كانت الكنيسة قد حددت يومية سنوية للزواج ، والتي قلنا إنها لا تمنح إمكانية للعزاب لولوج عالم الزوجية ، سوى في 16 يوما في السنة .. إذا كانت هذه اليومية واضحة وصريحة ، فإن العديد من الزيجات تمت خارج ممنوعاتها . وهنا برزت تلك السلطة الدينية والمعنوية لرجال الدين من القساوسة والرهبان ..

كانت العادة ، أن يتقدم العريس المستعجل إلى أحد هؤلاء القساوسة (شرط أن يكون حجة ، وأحيانا يتقدم بالطلب مباشرة إلى البابا) ، بطلب لأجل إجازة الزواج في

فترة محرمة .. وتورد كتب التاريخ هنا ، قصة الرسام
والدبلوماسي الفلاماني «بيسبول روبنس» (1640/
1577) الذي شغف وهو في الثالثة والخمسين من عمره ،
بفتاة بالكاد أكملت ربيعها السادس عشر ، تدعى
« هيلين فورمان » ، فقرر الزواج منها بعد أن أنسته
زوجته الأولى « إيزابيل بروننت » . . .

كان ذلك في أواخر سنة 1630 ميلادية ، أياما
معدودات قبل أعياد الميلاد المسيحية . . . ولأن الكهل
« روبنس » قد عادت الحياة لريشته ، لمجرد رؤيته للشقراء
الموردة هيلين ، فقد كان مستعجلا مثل صبي تسيل لعابه
قطعة حلوى بعيدة ، لأجل « الفوز » بآنشاء الجديدة ، ولم يكن
بمستطاعه الصبر لأجل انقضاء الأيام الحرم . لذلك فقد توجه
الى إسبانيا لمقابلة القديسة « إيزابيل » ، طالبا منها السماح
له بالزواج ، ومباركة قرانه بالصغيرة « هيلين فورمان » ..
وكذلك كان .. حيث عاش معها سنواته العشر الأخيرة ،
تاركا إياها في السادسة والعشرين من العمر ، ومعها واحدة
من أشهر اللوحات الزيتية في العالم ، المعروفة
بلوحة « هيلين وأبناؤها » .

« الزواج الديني » كان من القوة الروحية ما يجعل حتى

غير المؤمنين بالديانات السماوية يلتزمون بطقوسه . وابتداء من القرن الحادي عشر، حتى القرن التاسع عشر ، كانت الزيجات الأوربية تتم بمباركة الكنيسة ، وكان العروسان يحرصان على أن يتم زفافهما مع أول خيوط الفجر ، وليس في الساعات المتأخرة من الليل . . لأن الليل منذور لكل الأرواح الشريرة ، بينما انبلاج الفجر هو فال حسن لانبلاج حياة جديدة هنية وآمنة .

في القرن السادس عشر ، كانت الكنيسة في أزمة ، مما تطلب اجتماع «مجلس الثلاثين» من أجل إعادة الوحدة للكنيسة الكاثوليكية ، خاصة بعد أن اكتسحت البروتستانتية بزعامة «مارتن لوثر» الجرمني ، أجزاء كبرى من القارة الأوربية .. وكان من محاور الخلاف والصراع ، الزواج الذي أكد مجلس الثلاثين على قدسيته ، فيما اعتبره البروتستانت التزاما بين كائنين يعمده القساوسة وليس أمرا مقدسا لا يجوز التراجع عنه فيما بعد .

كان رد الكنيسة الكاثوليكية من جديد ، التأكيد على تحريم الطلاق ، وعلى ضرورة رضا الوالدين (وهنا سجل تراجع عما سبق) ، ثم ضرورة إشهار الزواج ضدا على كل الزيجات السرية التي تتم في جنح الظلام ، على

أن يتم ذلك كله أمام قس داخل الكنائس ، وبحضور شهود
(ثلاثة على الأقل) . .

يضع العروسان ركبهما على مصطبة معدة لهذا الغرض ،
يطلق عليها « مصطبة الخشوع لله » ، ويشرع القس في
تلاوة أدعيته ، تماما كما حدث مع «لويس الخامس عشر» ،
ملك فرنسا الذي خاطبه الكاردينال قائلا : « لم يكن ينقص
مهابة جلالتكم غير زوج تكملُ بها سعادتكم .. زوج تليق
بكم وتستحقكم ، ولم يكن بمقدور أحد منحها لكم إلا
الله . . فالهيبة والثروات تكتسب وتورث جيلا إثر جيل ،
أما امرأة صالحة ، عاقلة وحريصة ، فتلك لا تتحقق إلا بهبة
إلهية يا جلالة الملك . لقد طلبتموها منه في سركم ، وها هو
طلبكم يلقي الإستجابة » . . كان الكاردينال « دوروان »
يبارك قران « لويس الخامس عشر » ب « ماري
ليزسانسكيا » (شقيقة ستانسيلاس ملك بولونيا) .

قوة « الزواج الديني » روحيا . كما قلنا سابقا . كانت في
التزام كل من نوى الزواج ، أن يتزوج وفق الطقوس
الكنسية الدينية حتى وإن كان من أكثر الناس إلحادا وكفرا
بالديانات السماوية . مما يعني أن الزواج طقس اجتماعي
بامتياز ، يلغي حين حدوثه فردانية الفرد أمام قوة روح

الجماعة .. وهذا أمر يتحقق ، في الواقع ، في أمرين :
الزواج والموت. ففي كليهما تكون الغلبة دوما للعرف وللروح
الجماعية .. في الأول يُزَوَّج المرء وفق شعائر ديانتة ، وفي
الثاني يشيع إلى مثواه الأخير وفق مراسيم الحزن
الجماعية ..

مثلا «كاميل ديمولان» (1760/1794) الفولتيري
التفكير ، الصحافي والمحامي الشاب الذي قاد في 12
يوليوز 1789 ، المتظاهرين بأسلحتهم ، واقتحموا حدائق
القصر الملكي الفرنسي ، والذي خطط للهجوم على
الباستيل ، وكان ضد ظلامية الكنيسة الكاثوليكية ،
سيتزوج من «لوسيل دوبليسيس» (1771/1794) تبعا
للطقوس الدينية المسيحية سنة 1790 .. ولأن الثورات
تأكل أبناءها دوما ، فقد نصبت له فخا عجلت بالقضاء
عليه رفقة صديقه «دانتون» ، وهو لما يزل في الرابعة
والثلاثين من عمره .. أما زوجته «لوسيل» فقد بعثت
رسالة احتجاج واتهام لرويس بيير ، أدت إلى اعتقالها أياما
بعد مقتل زوجها ، لتلقى نفس مصيره ، وهي بعد في
الثالثة والعشرين من عمرها ..
أما في كاتدرائية «سان - بول» بكروزناخ الألمانية ، فإن

كارل ماركس (1818/1883) ، الفيلسوف والإشتراكي الألماني ، صاحب «المانفيسستو الشيوعي» رفقة صديقه «إنجلز» ، وصاحب الكتاب الشهير : «رأس المال» (1867) ، والذي ذاعت نظريته العلمية التي اقترنت باسمه ، وأصبحت تعرف بالماركسية ، كارل ماركس تزوج هو الآخر بـ «جينى فون فيستفالن» يوم 28 ماي 1843 في إطار ديني كنسي - مسيحي محض ، لأن الزواج الديني كان إلزاميا في ألمانيا .

النماذج من هذه الزيجات عديدة ، وهي العنوان - تاريخيا - على قوة العرف والروح الجماعية ، في أكثر الأمور حميمة في حياة الإنسان ، وهي الروح التي تذوب أمامها الذات ، ورغباتها مثل جبل ناتئ من الملح ، قاعدته صحن ماء بارد . . . ●

« في منتصف الليل ، خرج المعلنون الستة على جمهرة الناس
المنتظرين ، كي يزفوا لهم أن الأميرة عذراء . فتنفس الفرنسيون
الصعداء ، لأن شرفهم لم يلوث .! »

شرف العائلة

كانت «العذرية» ، (عذرية العروس) هي جواز المرور نحو الحياة الهنية ، المستقرة ، وكانت هي البوابة التي منها يعبر الزوج نحو الديمومة والصلابة ..

وحين نقول : «كانت» ، كما لو أننا نحكم بالجزم أنها ليست كذلك الآن أيضا .. هي لا تزال كذلك في كل دول جنوب البحر الأبيض المتوسط ، والعالم العربي والاسلامي ، والعديد من قبائل إفريقيا وآسيا .. والجديد في أمر

«العذرية» كشرط للزواج السليم والناجح ، الآن ، في العديد من هذه الدول والمجتمعات ، أنها مجال لخدع ساقطة بامتياز . وأنها مجال لحروب رمزية يوهم كل طرف من أطراف الزواج ، الطرف الآخر أنه المنتصر فيها وأنه الغالب !!

ولم يكن تحذير الأديب والروائي الفرنسي «بلزاك» في كتابه : «فيزيولوجيا الزواج» حين قال : «لا تبدأوا زواجكم أبدا بالعنف (..) فمصير العائلة الجديدة مرتبط دوما بالمال الذي تنتهي إليه أول ليلة (بين الزوجين) » . لم يكن هذا الكلام مجانيا أو مبالغا فيه .. ذلك أن العديد من الزوجات انتهت إلى الفشل والخواء الروحي والملل ، بسبب البرود الذي أصاب أطراف الجسدين ، لأن العرف شاء أن يركب الزوج هيجانه وفحولته التي هي «عنوان» ذكورته ، وأن تتوقع الزوجة في ظلام خوفها وتهيبها من رفيق حياتها ، الذي يخيف أكثر مما يطمئن .. وكانت نتيجة هذا البرود ، أن الزوج الذي لم يدرك في أغلب الحالات رقة زوجته وعفتها ، انتهى به المطاف للبحث عن ملذات جسده خارج بيت الزوجية . وهنا يفتح عالم الخيانة الزوجية بابه على مصراعيه ، لاستقبال زينائه الذين بلا عدد ..

كان شرط كل الزيجات على امتداد العصور والأحقاب ،
هو تحقق العذرية .. عذرية العروس ، وإلا سقط كل شيء
وذاب مثل جبل من الملح .. ولأن الزيجات القديمة ، في إطار
العلاقات التي تنتظم فيها المجتمعات الفلاحية ، كانت
زيجات مصالح ، حيث المصاهرة مجال للتقارب التجاري أو
السياسي أو العسكري أو الديني . وحيث المرأة سلعة رفيعة
القيمة ، لا يفرط فيها أبداً ، لأنها ضامنة الذرية وضامنة
انفتاح أبواب السعد على العائلة وعلى القبيلة ، وأحيانا
على الدولة . هذه الزيجات ، إذن ، كانت سيفاً ذو حدين ،
فإما أنها ترفع للعلا وإما أنها تطوح نحو الهاوي .. وكانت
القنطرة إلى ذلك كله ، هي : العذرية ..

مثلا العلاقة بين دولتين تتم المصاهرة بين عروسين
منهما ، قد تنتهي إلى الكارثة وإلى حروب طويلة ، في حال
ما إذا حدثت إهانة عدم عذرية العروس . مثلاً ، حين زوجت
الأميرة «آن دوبروتاني» (1477/1514) والتي كان
مهرها لفرنسا من زواجها الأول مع «ماكسيمليان» النمساوي
هو إقليم البروتاني ، أقول حين زوجت هذه الأميرة للملك
فرنسا «شارل الثامن» (1470/1498) الذي توفي
بسبب سقطة هشمت رأسه ، كان السؤال الذي حير العامة

والخاصة بفرنسا آنذاك ، وكان للكنيسة دور فيه ، هو : هل الأميرة «آن» لا تزال عذراء ، كما يقال ، بعد زواجها الفاشل من «ماكسيمليان» النمساوي ؟!.. الأمر سيكون سبة وعارا يلحق بشرف فرنسا ، إن كان العكس هو الصحيح ..

والحل ؟!

الحل ، إنه تقرر اختيار ستة محلفين من مدينة «رينس» ، من المشهود لهم بالصدق والنزاهة ، ليحضروا مع العروسين أول ليالي حياتهما الزوجية !!. نعم ، لقد حضر الرجال الستة وعلى رؤوسهم قطعة ثوب ، ليصيخوا السمع لما سيحدث بين الملك والأميرة .. ثم ليقدّموا بعد ذلك تقريراً مفصلاً عما عايشوه في تلك الغرفة الملكية ، لوضع حد لكل الشائعات وكل أسباب الشك ..

في منتصف الليل ، خرج المحلفون الستة على جمهرة الناس المنتظرين ، كي يزفوا لهم أن الأميرة عذراء . فتنفس الفرنسيون الصعداء ، لأن شرفهم لم يلوّث ..

أما «فرانسوا الأول» (1494/1547) ، والذي حكم فرنسا بعد «شارل الثامن» ، فإنه لم يتردد في أن يدفع باب الغرفة على ابنه «هنري» وعروسه «كاترين

دوميديسيس» صارخا : «هيا ، يا ولدي ! ما الذي
أخرك» ، أما عم العروس وهو البابا «كليمان السابع» ،
فإنه لم يتردد بدوره لولوج غرفة الزوجية ، ويتجه رأسا
صوب قريبته ليتأكد بأم عينه إن كانت عذراء !!

كانت العذرية إذن ، جواز المرور نحو الحياة الهنية ،
المستقرة ، وكانت هي البوابة التي عبرها يعبر الزواج نحو
الديمومة والصلابة .. ولهذا السبب ، كانت العادة أن يعرض
لحاف السرير على العامة ، وفي ذلك يتساوى الأمير وأبناء
العامة .. وسواء في إسبانيا القرن الخامس عشر أو في أثينا
القرن الثالث قبل الميلاد ، كانت العادة أن تطل العروس
فرحة ، منتشية ، وهي تضع على جانب من نافذة غرفة
نومها ، صباح أول ليلة من ليالي الزوجية ، اللحاف
المتضمن لدليل عذريتها حتى يتأكد الجميع أنها ابنة العائلة
المصونة ، وإنها كانت - كما تقول بعض الأهازيج المغربية :
«هكذا يكونوا بنات الرجال المحضية» !!.

تقول «ماري - أوديل ميترال» حول الجنس والرغبة ، كما
يتحققان في مؤسسة الزواج (انظر الصفحة 752 من
الموسوعة العالمية - الجزء 11) : «إذا كان الجنس يقرن في
الحضارات البدائية القديمة بإعادة إنتاج النوع ، فإنه يتضمن

أيضا نقطة أساسية جديدة تسجل اختلاقه عن الممارسة الجنسية الحيوانية ، ألا وهي تنظيم النسب . بذلك أصبح الجنس مقننا لضمان استمرار النوع البشري ، وكان القانون الأسمى لتحقيق ذلك ، هو تحريم الفعل المحرم الذي يمنع تحقيق بعض الرغبات . وبالتالي لا يمكننا مضاجعة أي كان ومتى شئنا .. لقد كانت العلاقات الجنسية عند الإنسان محددة ومضبوطة بقوة القانون (...) لأنه بذلك يحقق شرط كبر السلالة وتزايدها . مثلما يحقق شرط التبادل المصلحي بين المجموعات البشرية (...) وشيئا فشيئا ، تحولت المرأة من بضاعة للتبادل إلى موضوع للرغبة ..

وموضوع الرغبة هذا ، لا بد أن يكون صافيا ، طاهرا ، لم يمسه أحد قبل ليلة الزواج .. وهي الليلة التي لا يخلو تاريخها - على كل حال - من بعض الحكايات النادرة .. منها مثلا حكاية الملك الفرنسي «لويس السادس عشر» ، الذي أعدمته الثورة الفرنسية - ذلك أنه في ليلة زفافه من «ماري أنطوانيت» ، ظل يأكل بشره كل ما لذ وطاب من المأكولات والحلوى . إنتبه جده لذلك ، فاقترب منه ليهمس في أذنه قائلا : « لا تملأ معدتك كثيرا يا ولدي ، هذه الليلة بالذات » ، التفت الأمير لجده مستغربا وقال : « ولم

يا جدي ؟! فأنا لا أنام جيدا سوى بعد أن أكل لحد
التخمة ! .. وهو ما حدث بالفعل .. لقد نام الأمير الشاب
وترك عروسه سهرانة تتأمله في حيرة وكمد ..
أما الفوتوغرافي العالمي «نظر» ، الذي كان زير نساء ،
فقد شاء حظ فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، تدعى
«أرنستين» ، أن تتزوجه .. وما أن أطل الصبح بعد أول ليلة
من ليالي الزوجية ، والرجل لا يزال مخمورا ، حتى قام من
سريره وشرع يرتدي ثيابه . ودون أن يلتفت لزوجته التي
اعتقدتها واحدة من صويحباته ، هم خارجا وهو يقول لها :
«طيب يا صغيرتي ، متى سأراك ثانية!!» .. كان ذلك نهاية
لزوجته الوحيد .. ●

« ما وحده الله ، لا يجوز للإنسان أن يفرقه . »

الطيران بنصف جناح . !

العلاقة بين المرأة والرجل ، من خلال الزواج ، علاقة «أخوة - محبة» ، يتحول فيها الجسدان من العلاقات الجنسية والروحية ، ونقط الاختلاف والتلاقي بينهما ، إلى ما يشبه الطائر الذي يرفرف بجناحين .. وفي حال تعطل أحد الأجنحة عن الخفقان في الهواء ، أو تقديم استقالته من ذلك ، فإن السقطة القاتلة لا محالة هي المنتهى ..

ولأجل أن يضمن الجسد الموحد استمرار سلامة طيرانه ،

فإنه لابد له أن يعود الى طبيعته الأولى ، حيث كل نصف
جسد يحلق بجناحيه الخاصين .. ذلك يسمى :
«الطلاق» ..

ولو انطلقنا من مقولة الفيلسوف الألماني «هيجل» في
كتابه «فينومينولوجيا الفكر» ، فإن الخاصية التي يمكن أن
تميز العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة ، هي في إدماج الحب
كي يخصب علاقة أخوة محبة بينهما . لأن هذه العلاقة
تفترض الاعتراف بالشخصية من خلال قبول الطرفين معا
لنقط تطابقهما ، ولنقط اختلافهما أيضا .. فكل
«موضوعية» ذاتية، تقابلها بالضرورة «موضوعية» ذاتية
أخرى ، تتحول بفعل علاقة الأخوة المحبة تلك ، إلى نوع من
المرايا السحرية لا يعكس بعضها بعضا بالضرورة ، ولكن
في المقابل يكمل بعضها الآخر . حيث تتحول «موضوعية»
الواحد إلى انعكاس «لموضوعية» الآخر .. ففسي نهاية
المطاف ، الآخر هو الذي يعطي للواحد منا حقيقة هويته
والعكس صحيح . وتلك هي جدلية الحب التي تنقح الذات
من كل الشوائب المشوشة لصفاء الصورة ، وتجعلها هي هي
من خلال إنضاج ماهية الصفاء في الآخر الذي هو شريك في
علاقة الأخوة المحبة تلك .

لأنه ، كما يقول دائما هيجل ، (أوردت ذلك ماري -
أوديل ميترال في مقال لها بعنوان : «جدلية الزواج») ،
ففي داخل الحب ويسببه ، يتجاوز الرجل والمرأة حدود
ذواتهما ، ليضحكا على الموت ، يعيش نوع من الديمومة
الأبدية . فالأنا هنا ، ما عادت تفكر في / ومن خلال
وحدتها وتفرداها ، بل أصبحت تفكر ، حينها من خلال
«النحن» .. وهنا تحضر العلاقات الجنسية ، حيث تكتسب
دالتها كلغة للغنج واللين والتوحد . فالفعل الجنسي هنا
- ضمن العلاقة الزوجية - يصبح التعبير الأسمى (بصمته
ولغته المرموزة التي هي لغة الجسد) للوحدة المجسدة والفعلية
للعلاقة القائمة . فهي هنا تتجاوز كونها مجرد فعل
بيولوجي ، لإعادة إنتاج النوع والزيادة في السلالة ، وضمان
الإستمرارية الجسدية والروحية من خلال الأبناء «زينة الحياة
الدنيا» ، تتجاوز ذلك إلى فعل دال للشخصين وللكائنين
الحرارين ، اللذين تجمع بينهما واللذين يكملان بها .

لهذا السبب ، لم تتردد «ميترال» في التأكيد على أن
ارتفاع المسيحية بالزواج لمرتبة القدسية ، إنما كانت تهدف به
التأكيد على أن الزواج هو في روحه ، تقديس
للحب المخلص ، والذي كيفته دينيا من خلال تحريمها

للطلاق ، اعتمادا على أن ما وحده الله ، لا يجوز
للإنسان أن يفرقه ..

لكن الواقع أن «مشكلة» الكنسية المسيحية هي في
مبدأ الطهيرة هذا الذي تبني عليه الكثير من قيمها ، وهي
الطهيرة التي لا تتوافق وضعف الإنسان ككائن خطأ .
فليس الذي يمشي فوق الأرض ، وفي الأسواق ملائكة
مطهرون ، بل بشر ، ميزتهم أنهم خطاؤون .
هكذا ، إذا كانت الكنيسة الكاثوليكية ، قد حاولت
نحت مفهوم طهراني ، قدسي ، للحب بين بني الإنسان ،
لأجل تثبيت مؤسسة الزواج ، ضدا على خيار الطلاق ، فإن
الكنيسة الأرثوذكسية - وقبلها الحضارة الفرعونية والحضارة
اليونانية والرومانية - كانت تفتح باب احتمال موت ما هو
منذور للديمومة . من هنا أجازت الطلاق ، وأحلت للأرملة
أيضا ، حق الزواج ثانية . لأن كل علاقة لا يقدر لها أن
تنضج ، بسبب افتقارها للعناصر العضوية لذلك ، فإن
الطلاق يصبح أمرا طبيعيا بين أطرافها . لأن الحب (كعلاقة
أخوة وعنف رمزي ، تقتسم فيه الأدوار بشكل طبيعي لا
افتعال فيه) ، إما أن يكون متبادلا أو لا يكون . وقد يحدث
- كما تقول بذلك ماري ميترال - أن يستمر أحد الطرفين في

حب الآخر ، رغم رفض هذا الأخير لذلك ، والعلاقة الزوجية هنا تتجه يقينا نحو الموت والفناء .. ولهذا السبب كان تاريخ مثل هذه الزيجات ، هو تاريخ الأسرة المتباعدة ، وأحيانا الغرف المفترقة ، بل في كثير من الحالات أمكنة إقامة مختلفة . والغريب أن الكنيسة الكاثوليكية ، كانت دائما تفضل علاقات من هذا النوع على أن يحدث الطلاق . وكان لابد من انتظار الثورة الفرنسية ليصبح الزواج مدنيا ، لاثكيا ، حيث نص قانون 20 شتنبر 1792 أن «الطلاق مندرج ضمن الحريات الفردية» .. ولموظف البلدية (أي ضابط الحالة المدنية)، أن يعلن الطلاق ويقرره اعتمادا على عشرات الأسباب ، ضمنها عدم توافق الأزوجة بعد الزواج !! ولقد تحول الطلاق حينها إلى ما يشبه الفيروس السرطاني ، حيث أصبح متفشيا بشكل كبير.. مما حدا بنابليون بوناپارت ، زمن إمبراطوريته الأوربية ، أن يلغي العديد من الأسباب المجيزة للطلاق وضمنها الأمور المزاجية ، والإبقاء على الأسباب التي رآها جدية مثل الخيانة الزوجية ، أو سجن أحد الزوجين لمدة طويلة ، أو الإعتداءات الجنسية السادية ، أو كل ضرر بائن وخطير، يهدد أحد الزوجين . لكن إصلاحات 1816 ، ستلغيه ثانية بصفة قطعية ..

وكان لابد من انتظار الجمهورية الثالثة الفرنسية ، ليعود الطلاق محللا من جديد سنة 1884 . ولن يصبح الطلاق أمرا يخص الزوجين لوحدهما ، دون حاجة لإعلان السبب أمام السلطات إلا في سنة 1975 . لابد من الإشارة إلى أن الطلاق كان معمولا به في الدول الأنغلوساكسونية منذ 1857 ، لكنه ظل قليل التحقق بسبب العرف الإجتماعي، ولعل أبرز دليل على ذلك حالة الملك «إدوارد السابع» الذي تخلى عن العرش البريطاني في ما بين الحربين العالميتين لأجل الزواج من مطلقة أغرم بها .. ●

« في العائلة، الرجل هو البورجوازي والمرأة هي البروليتاريا . »

مؤسسة الزواج

حين قال «فلاديمير إليتش أوليانوف» ، المعروف بـ لينين ، والذي قاد الثورة البولشفية في روسيا القديمة ، وأسس الإتحاد السوفياتي ، حين قال : «في العائلة، الرجل هو البورجوازي والمرأة هي البروليتاريا» . كان كلامه - في الواقع - تنويجا لنقاشات وتطرح أفكار عديدة ، ميزت بداية القرن العشرين حول الحياة الزوجية . ذلك أن أكثر المراحل التي شهدت اجتهادات ونقاشات حول هذا الموضوع ، هي نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن

العشرين ، في خضم صراع الأفكار الذي ميز هذه الفترة ..
وهي فترة الأفكار التحررية التي سعت إلى الحد من درجات
الغبى التي بلغتها الطبقات العاملة بالمدن والمناجم ،
والتي ظهرت كقوة داخل المجتمعات الأوروبية ، لها مطالب
اجتماعية واقتصادية وسياسية .. كانت تركز في أطروحاتها
على المبادئ التي تنتصر للمواطن / الإنسان / الفرد
المنتج .

كان الواقع الجديد للأنظمة الاقتصادية الصناعية ،
يفرض بالضرورة خطابا وطرائق تفكير جديدة حول الزواج .
لأن أي حديث مهما ادعى العلمية والعقلانية ، لن يستقيم
إذا ما أغفل «الكشوفات الجديدة» لعلم النفس ، وإذا ما
تغافل أيضا واقع المرأة الجديد ، حيث تزايد عدد العاملات
منهن بالمصانع ، وباقي المرافق الخدمية (صحة ، تعليم ،
بريد ، أبناك ، تجارة ... الخ) ، مما زويع استعمال زمنهن
بالكامل ، الذي أصبح موزعا بين التزامات النظام القديم ،
وبين التزامات الواقع الجديد . وكانت النتيجة المنطقية لهذه
الزويدة ، هي ارتفاع نسبة الطلاق .

كانت الأفكار الجديدة التي انطلقت مع كارل ماركس
وإنجلز ، وتواصلت مع علماء النفس (فرويد أساسا)

والاثنولوجيين (ليفى ستراوس نموذجاً) ، تبحث كلها في ضبط مؤسسة الزواج ، وتداعياتها الإيديولوجية والاجتماعية ، كمؤسسة لإنتاج وإعادة إنتاج النوع البشري والحفاظ عليه . أو كما كتب إنجلز : « إنتاج إعادة الإنتاج في الحياة الآتية » . ذلك أن هذه الإنتاجية مزدوجة ، فمن جهة تنتج وسائل البقاء من خلال كل ما له علاقة بالغذاء واللباس والسكن ، مثلما تنتج النوع البشري ، أي تضمن استمراره . تقول « كاترين كليمون » في مقال لها بعنوان : « سوسيولوجيا الزواج » إنه بالتالي لا يمكن نكران هذا الدور للزواج ، في أنه مجال للتكرار وإعادة إنتاج واقع منتج أصلاً .. وتستغرب أن المجلات النسائية والبرامج الإذاعية وكل وسائل الإعلام ، تحاول على العكس ، إبراز أن العلاقة الزوجية علاقة إبداعية وليست تكرارية . وأنها انطلاقاً من ذلك ، علاقة لإنضاج شخصية كلا الطرفين المشكلين لها (أي المرأة والرجل) .

النظرة الأولى ، ترى في الزواج مؤسسة إنتاجية آلية لا تحقق ذاتها إلا من خلال القيام بعملية الإنتاج كما يجب . ومثال ذلك ، هو النجاح في إنجاب الذرية أولاً ، ثم في تربيته ثانياً « تربية صالحة » ، ثم في توفير أسباب حماية

ذلك المجتمع الصغير صحيا ، فكريا وسلوكيا ، من خلال توفير المسكن والملبس والمأكل وباقي وسائل الترفيه . ففي حال تحقق هذه الإنتاجات ، يكون طرفا الزوجية قد نجحوا في رسالتهم وأعطيا الدليل على تكرار إنتاجية مؤسسة الزواج جيلا إثر جيل .

أما النظرة الثانية ، التي تقول بالإبداعية ، فإنها تعترض على الطرح الأول لإلغاء ذاتية الزوجين . وأن إكراهات الإنتاجية الآلية وتواصلها ، يخلق الملل والنفور ويتسبب في انحرافات اجتماعية وروحية . هنا يطرح أصحاب هذه النظرة الثانية ، المشاكل التي تعرفها العلاقات بين الزوجين والتي محورها الجنس أساسا ، (مثلا : مسألة حبوب منع الحمل ، الإهتمام بالذات ، فرح الجسدين ببعضهما دون غائية الإنجاب ، والخضوع لإكراهات العرف الاجتماعي ... الخ) .

لكن الواقع ، أن هذه المشاكل - على أهميتها الكبرى في أية علاقة زوجية - ترى كاترين كليمون ، ليست وحدها الأعمدة التي عليها تقوم مؤسسة الزواج . وأن شعار : «حرروا المرأة» الذي هو شعار مشروع ، لا يكون بالقطع عبر حبوب منع الحمل أو بالاهتمام فقط بالجسد .. والحال أن

مشاكل هذا الجسد الحقيقية ، إنما هي في الزوينة التي تعيشها النساء مع استعمالات زمنهن الخاصة ، حيث أنهن موزعات بين العمل خارج البيت (وفي الغالب بأثمان بخسة) ، وبين مسؤوليات الزوجية التي تفترضها الإنتاجية في مؤسسة الزواج ، كما حددناها فوق . هنا تتهم الصحافة النسائية (لأنها تركز على الجسد، الذي تعتبره الهاجس الأول في الحياة الذي على المرأة الحفاظ على أغرائه وأنوثته) ، وأصحاب النصائح النفسية في الإذاعات والعارفات وبعض أطباء النساء الذين هم متهمون بالإساءة لمؤسسة الزواج ..

هذا لا يلغي . ضمن نقاشات هذا القرن ، الذي كان موضوعه الفكري الأول هو الإنسان / الفرد . أن وضعية المرأة كما تبدى في مؤسسة الزواج ، وضعية مقلقة ، وتتضمن العديد من أسباب الإحتجاج . بالتالي ، فإن مقولة الماركسية أن المرأة كانت دوما «أمة» حتى قبل العبودية نفسها ، وأنها . كما كتب لينين مرة . كانت ملكا خاصا ضمن العائلة وأنها كانت الخادمة الأولى ، وكانت تنحى من المشاركة في الإنتاج الإجتماعي .. مثلما أن «اليوتويا» التي تقرر تحرير المرأة ، باكتشاف حبوب منع

المحمل والتركيز على الجنسانية والإهتمام بالجسد ، والحق في العمل ... كل ذلك إيديولوجية تتضمن الكثير من نقط الصواب وذلك ليس في إطار نسواني محض ، ولكن في إطار إقرار حقيقي وفعلي للعدالة ضمن مؤسسات المجتمع وأيضا فيما بين المرأة والرجل ، حيث يستحيل أي عدل بين الجنسين دون إدراك (والإعتراف) باختلافهما أساسا . وهو ما يجعل «كليمون» لا تتردد مثلا ، في التأكيد أن مؤسسة الزواج تفلت عن كل مقارنة تدعي الموضوعية . لأن الزواج مجال ذاتي بامتياز . ●

**، هل الإبن ، علامة أكيدة على حميمية العلاقة الزوجية أمام
الآخرين ؟ .،**

« قرن الأفكار الكبيرة »

من أفكار نهاية القرن العشرين حول الزواج
تنتصر للإنسان ككائن منذور للزوال . وبما
أن الزواج تجسيد لوحدة كائنين بشريين ، فهو تجسيد
لتاريخهم الخاص .

في هذا الجزء مقارنة للأبناء ضمن مؤسسة الزوجية ..
وأسئلة حول الغاية من إنجابهما .

هل هما هدف الزواج الأول أم لا ؟ أسئلة تحاول أن تكون
جزءاً من إرهابات أسئلة العقود القادمة التي ستواجهها

البشرية .. وهي هنا لا تدعي الإحاطة والمحجية ، بقدر ما لا تتردد في الإعراف أنها لا تعدو كونها مقدمات لأفكار قد تنضج أكثر في القادم من الأيام ..

لأن ميزة وحدة العائلة ، هي بالتأكيد تلك الحميمية التي تتحول الى أكبر رابط اجتماعي لا انفصام لعراه ، من حيث أنه القوة الضاربة لحياة - تأتي هذه الحميمية - ليس لتكون تتويجا نهائيا لها ، بل مقدمة لفتحها على كل ما هو جميل وخصب في حياة العائلة الجديدة ، حينها لن يكون مبدأ الأخوة خاصا فقط بكائنات من نفس الجنس يوحد بينها مبدأ ومثال مشترك ، بل تصبح أيضا ملحا مشتركا بين الرجل والمرأة تعطي لمشروعهما المشترك طعما خاصا .

هذا «النحن» المشترك الذي يجمع بين الصنوين ، أي بين المحب والمحبوب ، بين الزوج وزوجه الذي ليس شيئا آخر ، سوى الصديق المفضل بين باقي الأصدقاء المتوج إمبراطورا في امبراطورية العلاقات الإنسانية السامية . هذا «النحن» المشترك الذي تجسده الوحدة الجسدية ، لا بد له من دليل وحدة مادي مجسد . وإذا كان أول الدلائل هو مؤسسة الزواج نفسها ، حيث ينحت الزوجان تاريخهما الخاص ، وحيث يعرف العالم المحيط بهما أنهما أطراف مؤسسة

عائلية جديدة ، فإن الدليل الثاني على وحدة هذه «النحن» المادية والفعلية تاريخيا ، هم الأبناء .

فالإبن هو العلامة الأكيدة ، الثابتة التي لا ريب فيها عن حميمية العلاقة الزوجية أمام الآخرين ، كل الآخرين ، بل هي التوقيع المبجل لتلك الحميمية في التاريخ . وكما يقول بعض علماء النفس الإجتماعي . فإن قدوم الإبن ، أو قبول قدومه وانتظاره ، يحول الحنو من طاقة داخلية في حميمية «النحن» المشترك للزوجين الى طاقة خارجية ، أي تنعكس على الخارج ، وهو بذلك أسمى عنوان عن ترسخ العلاقة في الزمن وفي المجتمع .

لكن - كما تساءلت ماري أوديل ميترال - هل الإبن هو الدليل الوحيد على الوحدة وعلى وعد الحميمية الدائمة ؟! هل هو أيضا الدليل الوحيد الذي يجعل حياة الكائنين تنتقل من الحب ضمن وحدة كيانيهما ، الى الزواج كمؤسسة ؟! أي من حميمية داخلية الى حميمية داخلية أخرى هي في الآن نفسه خارجية بالنسبة للحميمية الأولى . لا يتعلق الأمر هنا بمحاولة للتقليل من أهمية الأبناء في الحياة الزوجية التي تتأسس على حميمية خاصة بين الأبوين .

فالطفل في نهاية المطاف ليس غائية العلاقة بين الرجل

والمرأة ككائنين يشتعل بينهما كهرباء الحياة . هو نتيجة
منتظرة نعم ، لكنه ليس غائية الزوجين المحبين .
هذا المفهوم للزواج ، في الواقع ، ينبني على خلفية
فكرية ، لا تزال بعد غريبة على مجتمعاتنا نحن ،
مجتمعات جنوب البحر الأبيض المتوسط والعالمين العربي
والإسلامي .. ذلك أن غائية الزواج عندنا هي أساسا إنجاب
الأطفال ، وشرط الزيجات الناجحة هي الزيجات المنجبة ،
وليس الزيجات السعيدة الفارقة في غسل الحميمة الخاصة ،
المكتفية بذاتها دون باقي إغراءات العالم كلها .
بالنسبة للثقافة الغربية ، التي تتأسس على الانتصار
للذات ولحاجياتها ، وتنتصر للفردانية ولحتمية أن يكمل كل
طرف (يحقق كينونته في العلاقة بالآخر المخالف جنسيا)
الطرف الآخر ، في احترام للإختلاف بينهما . بالنسبة لهذه
الثقافة ، فالإبن ذاتية جديدة خارج وحدة الذاتية التي
يتأسس عليها الزواج بين الأم والأب . حيث يكون الحنو فيها
درجات ، يحتل المرتبة الأولى فيه طرفا العلاقة الزوجية أي
مؤسسا المؤسسة وأعمدها : الرجل والمرأة .
لأنه ، كما يقول بذلك فورستبي في كتابه : « كتابات
تنبؤية في الأخلاق » قدر الانسانية أن تتخلى عن مبدأ

الحفاظ على النوع البشري وإعادة إنتاجه لأجل مبدأ جديد يوظف فيه الانسان بشكل مخالف قدراته الخارقة على الحب . لأن «النحن» الذي تحدثنا عنه فوق الذي تلحم كيانه الحميمة الخاصة غير المرئية وغير القابلة للوصف ، هو في العمق وفي أساسه تكثيف للزمن ولقوة وقيمة العلاقة بين الكائنين المشكلين لها . وبذلك - بذلك وحده - يصبح الإبن واحدا من الإحتمالات والإمكانات الكثيرة ، المتعددة للإلتزام الإجتماعي والتاريخي للعلاقة الزوجية .

وإذا كان الحب منذورا ومفتوحا على ما هو أبدي ، فإن الإبن حتى وإن أدى نفس دور الحب فإنه ليس الشرط الوحيد ولا الغائية الوحيدة للزواج . وليس قيда لهم ، والحرية هذه هي من القوة ، ما يجعل «النحن» الذي تلحمه الحميمة ، يقف في ضفة احترام كل الآخرين كذوات مستقلة ، وضمنها الأبناء . هنا يتحول الزواج إلى رحلة مخصصة للذات . رحلة تنتقل من الإحتمال إلى التحقق ، مضمنها ليس فقط التطور قدما الى الأمام ، ولكن روعة وفن تحقيق ذلك مع آخرين . أعني مع آخر بعينه . هنا ، فالزواج ، في مفهوم الحضارة الغربية خلال القرن العشرين (قرن الأفكار الكبيرة) هو الحقيقة المجسدة للحب . هو أساسا حب معلن أمام

«الجماهير» والتزام للإنسان أمام التاريخ الذي يقول عنه
الباحث المغربي عبد الكبير الخطيبي ، أن على الإنسان أن
ينسحب منه . أن يغادره . كأثر تاريخي . ●

« ثمة تاريخ كامل للألام ، كان ضحيته : الرجل و المرأة معاً . »

ديمقراطية الحب . !

يجادل . فيما نعتقد . أن أكثر المناطق لبسا
وغرائبية في الإنسان ، هي تلك القارات السرية
التي يتبادل فيها الرجل والمرأة رسائل مرموزة ، والتي تتبدى
بشكل واضح من خلال مؤسسة الزواج ..

وقد لا يتفق الكثيرون . وربما الكثيرات . مع مقدمات
وخلاصات هذه الكتابة ، لكن « شفاعتها » أنها تلخيص
لأستلة هدفها الأول والأخير تسليط الضوء على قدر قوة
بطارياتها ، نحو تلك القارات السرية ، وتلك المناطق الملتبسة

المميزة للإنسان كإنسان .

ثمة فكرة تقول : إن مشكلة المرأة هي مع المكان ، فيما مشكلة الرجل هي مع الزمن .. المرأة لأنها لا تشمل الفراغ ، فيما الرجل لا يحتمل النسيان .. وإذا كان هم المرأة أفقيا ، أي أنها تهتم أكثر بتأثيرات عالمها المادي الحسي ، فإن هم الرجل عمودي ، لأن وكده الأكبر هو ترك الأثر في الذاكرة وفي التاريخ ، أي في الزمن ، من خلال تحقيق تراكم في «منجزات» العمر ، والعمر قصير مهما طال .. المرأة ليس لها مشكل مع الزمن ، لأنها منذورة للخصب الذي قد تحققه مع هذا المحضن أو ذاك . أما الرجل فإن «مأساته» هي في وكده وحرصه أن لا يضيع مواعيد حياته التي لا تتكرر .

جدلية هذا الخلاف في الطبائع ، هي بشكل من الأشكال، تلخص تجاذب تلك التيارات السرية التي ظلت قائمة في بحر العلاقة بين المرأة والرجل منذ آدم وحواء... وهو تجاذب غير متعمد من الكائنين البشريين ، بقدر ما هو تجاذب سري أفرزه تاريخ علاقاتهما ، وأنضجته الشروط الاجتماعية التي كيفتها صراعات المصالح على امتداد تاريخ البشرية .. والزيجات الناجحة ، هي تلك التي

ضحكت على قوة جذب هذه التيارات ، وأبحرت في ماء
المصالحة والصفاء والصدق مع الذات . فكلما كان الزواج -
تاريخيا - يطعم العرف الإجتماعي (الذي غذاؤه الشك وعدم
الثقة في الآخر - ذكرا أو أنثى -) يطعمه برد المسافات ،
كلما كان قويا ، سليما وناجحا .. وهو ما يعطي الدليل
القطعي على أن الزواج يفلت من كل مقارنة موضوعية ،
وأنه أمر ذاتي بامتياز . ومقارنة كل ما هو « ذاتي » ، أي
كل ما هو متعلق بالإنسان ككائن حي منذور للزوال ، لا يتم
إلا من خلال تقاطع عدد من المباحث العلمية المشكلة لمجال
العلوم الانسانية . (والعلوم الانسانية ليست علوما حقة ،
قطعية ، بل هي علوم رخوة كما يؤكد ذلك باحث كبير من
حجم «جون بيبجي») ، كالسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا ،
وكذا لمجال العلوم القانونية والإقتصادية .

لقد ظل الإشكال الفكري الذي واجه كل الذين اهتموا
بموضوع الزواج ، هو ذلك الانتقال الذي يتم من كهرباء
العواطف والأحاسيس الإنسانية النبيلة التي تجمع بين المرأة
والرجل ، إلى مؤسسة الزوجية ، أي الانتقال من صفاء
الخيار الذاتي لكل ما في الحياة من بهاء ، إلى إكراهات
المجتمع ، حيث الخوف كله أن تبتلع الثانية الأولى و تهرشها

مثلما يسف فيروس مرضي تورّد خدود فاتنة . هنا يستبد سؤال مركزي يقول : « كم هي الزيجات التي تتحقق فيها الرفقة بين كائنين حرارين ؟ وبالمقابل أليس ثمة عدد لا حصر له من العلاقات تتحقق فيها الرفقة الطيبة ، دون أن يتحقق فيها شرط المؤسسة الزوجية ؟ » . تتعدد الأجوبة وتختلف باختلاف الحضارات . فكلما كان الأمر متعلقا ، تاريخيا ، بمصالح إقتصادية ، تكون المرأة واحدة من أدوات المقايضة فيها ، وكلما كان الهدف هو رعاية الدم ، وتقوية العصبية ، والزيادة في السلالة ، كلما كانت مؤسسة الزواج كإكراه ضد الذات ، هي السائدة .

تقول « ماري - أوديل ميترال » (الموسوعة العالمية الجزء 11) ، إن تاريخ أوروبا المسيحية ، يسجل غلبة لإكراهات مؤسسة الزواج ، لكن ذلك لا يلغي تحقق عدد من الزيجات كان طرفاها يتبادلان الهمس الحميمي والحنو ، في إدراك كامل لشرطهما الإنساني . ففي عهد « القديس أغسطين » (430/354) الذي حاول المزاجية بين الأفلاطونية والمسيحية ، بدأت تبرز أشكال جديدة للعلاقة بين المرأة والرجل . حيث خص هذا القديس فن الخطابة بالرجل ، فيما حدد دور المرأة في القدرة على الإنجاب . ولم

تتبلور لقرون فكرة الرفقة ، ولم تختمر وتنضج حتى الآن بما فيه الكفاية ، في العديد من حضارات العالم ، بما فيها الحضارة الغربية !!

هذا لا يلغي - تقول ميترال - أنه في فسيفساء المجتمعات المدنية والصناعية الحديثة ، الغاية في التقنية ، يولد شكل جديد ومتفرد لمعنى أن تكون رجلا وأن تكون امرأة . وهو شكل يجد أساسه في علم النفس والإثنولوجيا (علم السلالة) والأنثروبولوجيا (علم الانسان) ، حتى ليتساءل المرء إن لم تكن قيم عالمية جديدة في طريقها للولادة والتحقق !! أشبه بتلك التي أنضجتها الأسطورة القديمة التي قدمت لقاء المرأة بالرجل على أنه تحقيق للرفقة وللزوجة في الآن نفسه !!

لكن التاريخ يسجل ، أن الذي تحقق هو المؤسسة الزوجية ، أكثر من تحقق الرفقة الطيبة . وأن ثمة تاريخا كاملا للآلام كان ضحيته الرجل والمرأة معا ، من حيث أنهما كانا وجهين لعملة واحدة ، هي الإضطهاد ، وتبادل للأدوار بين الجلاد والضحية . وكان هذا التبادل أو التناوب ، هو مجال العلاقات الجنسية أو المجال الذي أعطي لهذه العلاقات في معناها الدلالي والانساني الواسع . بمعنى

آخر، المجال الذي أعطي لما هو حميمي ، أي المكانة التي منحت للهوية ، ولقبول الحق في الاختلاف .. بشكل من الأشكال يلمح هنا لديمقراطية الحب ، إن كان في الحب من ديمقراطية !!

هذه الأسئلة والطروحات التي قدمناها ، ليست أكثر من بعض الضوء الذي يحاول أن يقول : إن طريق الزواج مستقبلا ، ستكون سالكة نحو زواج الرفقة الطيبة ، أي الزواج كتاريخ لهذه الرفقة .. ●

«الرائع ، ليس أن تصبح شيخا ، بل الرائع ، هو أن تتعمل ذلك .»

« ديمقراطية الزواج . ! »

الذي
نعنيه هنا ليس زيجاتنا المغربية ، العربية
بالتأكيد . ليس فقط لأن زيجاتنا غير
« ديمقراطية » ، ولكن لأننا لا نزال بعيدين دولا ومجتمعات
عن رحابة وبهاء جغرافيا الديمقراطية في كافة شروطها
وتضاريسها الفاتنة .

نتحدث هنا أساسا عن الزواج بالدول الغربية بعد
منتصف القرن العشرين ، حيث استعراض للجوانب القانونية
لهذه الزيجات التي تحرم تعدد الزوجات ، وتعاقب الخيانة

الزوجية ، وتلح على إلزامية الفحص الطبي ...
لم يتحدد دور المجتمع فقط في فرض أعراف ، وتقاليد
خاصة بالزواج ، بل أيضا في فرض ممنوعات ، وتحريم
أشكال عدة للإرتباط بين المرأة والرجل ، دون أن يمس ذلك
بمبدأ الحرية الزوجية . فالمجتمع . بشكل من الأشكال . إنما
يحاول أن يحمي بعض حقوقه الجماعية ضمانا لأن لا ينفرط
عقد المعنى العام الذي تواضع الجميع للعيش تحت مظلته ..
ذلك أنه ، كما للذات حقوق ، للمجتمع حقوق أيضا . وحتى
يكيف المجتمع ممنوعاته ، فإنه يقدمها ك شروط للزواج ..
لهذا السبب كانت هذه الشروط تتباين من مجتمع الى
آخر ، ومن حضارة الى أخرى .

ثمة من يحدد هذه الممنوعات في جوانبها الجسدية
المحضة ، أي في جانب العلاقات الجنسية . وثمة من يتجاوز
ذلك الى الممنوعات الروحية ، والى الظروف المعيشية
والاجتماعية لكلا العروسين .

في أغلب القوانين الغربية نجد صرامة في ثلاثة أمور ،
أولها : منع الزيجات من نفس الجنس ، (أي رجل مع رجل
أو امرأة مع امرأة) ، ثانيها : تحديد سن الزواج الإجمالي
في 15 سنة للفتاة وفي 18 سنة للفتى ، ثم أخيرا إلزامية

إجراء فحص طبي .. وهو الإجراء الذي شرع في تطبيقه منذ سنة 1942 ، وهو فحص لا يهدف ، كما حدد نصه القانوني ، بأي شكل من الأشكال تحديدا عنصريا للنسل ، كما عملت بذلك النازية منذ 1935 ، حيث كانت تلزم كل الراغبين في الزواج بضرورة إجراء فحص طبي ، لأجل التأكد من توفرهم على الجينات الجرمانية الآرية .

شرط الفحص الطبي الذي لم يشرع فيه في بلادنا سوى منذ 1993 ، يؤكد على حق السرية التامة لنتائج الفحص ، إن إزاء الشريك أو إزاء الدولة ، ولا تعطى نتائجه إلا للمعني بالأمر ، ولا تسلم إطلاقا لشريكه . وعلى عكس الدول الأسكندنافية ، فإن إصابة أحد الزوجين بمرض وراثي ، لا يلغي الحق في الزواج .

أما المحرمات الإجتماعية ، فتحدد في مبدأ تعدد الزوجات ، وفي الخيانة الزوجية ، ثم في ما حرم من زيجات قرابة الدم . ذلك أن الغربيين يحرمون تماما تعدد الزوجات ، ويقولون بالزواج الواحد ، ولا يحق لأحد الزوجين إن يتزوج ثانية ، إلا بعد حل زواجه الأول . ولأجل التحقق من أن أحد الراغبين في الزواج غير متزوج أصلاً ، فإن ضابط الحالة المدنية الذي يشرف على قانونية الزواج ، يلزم على الطرفين

إحضار نسخة من شهادة الميلاد ، وهي الشهادة التي تتضمن ليس فقط تاريخ الميلاد ومكانه ، بل تتضمن أيضا إشارة لسجل المعني بالزواج .. هل هو عازب ، هل هو متزوج ، هل هو مطلق ... ؟

واعتمادا على معلومات شهادة الميلاد هذه ، يجيز الضابط الزواج أو يلغيه . وحتى اذا ما تم الزواج الجديد دون علم الشريك ، فإن هذه الزيجة تسقط مباشرة بحكم قوة القانون ، بل إن المحاكم الغربية تصدر أحكاما جزائية ضد الزوج الذي قد يمارس هذه العملية بإصرار ، ويتخطى «مبيت» .

ومنذ منتصف القرن العشرين ، تحول الحق في الزواج في العديد من الدول الغربية - بقوة القانون - إلى مقدمة لتحقيق أحلام الأفراد في نحت حياة سعيدة ، بل كان الزواج أكثر المجالات ليبرالية في هذه الدول .

هذا التحول ، لم يكن سريعا ، ولا كان بدون مشاكل وصدمات ونقاشات واجتهادات فكرية . وهو لم يتحقق إلا بفضل التطور الكبير الذي طال الرجل والمرأة في الحياة العامة للمجتمعات الغربية . وكانت ليبرالية الزواج أو الحق في الزواج نتيجة للإصلاحات القانونية التي طالت نظام

العائلة ككل ضمن مدونة الأحوال الشخصية أو قانون الأحوال المدنية . وهي الإصلاحات التي جاءت لتقوض النظام القديم الذي يتأسس على نظام تراتبي ، يجعل المرأة تحت إمرة الرجل / الزوج / رب العائلة ، وأصبح النظام الجديد ينبنى على قاعدة العدل بين الزوجين ، وعلى تساويهما في الحقوق وفي الواجبات . هنا ظهرت ، وترسخت الكثير من الحقوق لصالح المرأة ، أهمها الحرية في مزاولة العديد من الأنشطة، مثل حرية اختيار المهنة التي ترتضيها ، ثم حقها في التصرف بحرية في ما تكسبه من مال ومن ممتلكات .

مثلما تم إقرار مبدأ التضامن لأجل تحمل اعباء مصاريف الزوجية ، من ضرائب ومستلزمات ، حماية للعائلة وأفرادها ، ثم اختيار محل الزوجية بشكل مشترك ومتفق عليه ..

« ديمقراطية الزواج » هذه ، روحها هي في التأكيد على مبدأ الرفقة الطيبة التي تسقط فيها كل النصوص القانونية وتخسر حيثياتها ، حيث يستقيم الصفاء في طريق الزوجين ، وحيث يتوج سيدا ذلك المعنى الجميل في أيام الزوجين ، الأيام التي يقشرونها يوما إثر آخر ، والتي تقودهم نحو شيخوخة آمنة .. الشيخوخة التي قال عنها

الروائي الألماني « غوته » وهو يتوجه بكلامه لرفيقة أيامه :
« الرائع ليس ان تصبح شيخا ، بل الرائع هو أن تتحمل
ذلك » !! ●

«الرياح ، تميل عنق الوردة نحو آفاق هبويها .»

إكراهات الزواج

وماذا لو نتحدث عن الإكراهات ؟! الإكراهات التي ينحتها المجتمع أمام أحلام أفراده ، والتي تتحول أحيانا في مجال الزواج ، الى ما يشبه قشور الموز التي تطوح بالإنسان وأحلامه في سحيق الآلام والخيبات ، وتتسبب في الكثير من الكوارث والأعطاب .. وبذلك يكون تاريخ الزواج ، هو تاريخ للألم وللעنف بامتياز ، وليس دائما تاريخا للفرح واللذة .

هنا نفتح ثلاثة من ملفات الإكراه التي تتفنن في اصطيد

أحلام الراغبين في الزواج ، لأجل الإطاحة بها في شباك
الإلغاء والوَأَد.١

للمجتمع عشرات الطرق لممارسة إكراهه على الأفراد
المشكلين للحمته . والإكراه هنا يعني تدجين أحلامهم ،
والحيلولة دون تحقيقها جميعها ، كما يرنو لذلك الأفراد
المعنيون بها . بل إن للمجتمع مكرًا في نحته لمصالحه .
يجعله يبدع مسارب ضيقة لا تسمح للأحلام الكبيرة الضخمة
أن تعبر منها نحو بهاء ورحابة التحقق ، ولا يبقى لها
من سبيل (أي لهذه الأحلام) إلا أن تنسف تلك المسارب
الضيقة من خلال المرور منها عنوة وبالقوة .. ذلك هو ما
يسمى بخرق العرف المجتمعي ..

في الزواج كثيرا ما تتحقق هذه الأمور جميعها ، بل هو
واحد من أكثر المجالات التي تظهر فيها إكراهات المجتمع ،
ويتجسد خذلان أحلام الأفراد المعنيين أساسا بأمر الزواج ..

من بين مسارب تلك الإكراهات نكتفي بالإشارة إلى
ثلاثة منها ، تنزل بكل ثقلها في المعركة الصامتة القائمة بين
الطرفين (أي المجتمع وأحلام أفرادهِ) . وهي إكراهات
الجغرافية ، والإكراهات الاجتماعية (الطبقية) ، ثم أخيرا
الإكراهات الثقافية .. جغرافيا كثيرا ما يكون بعد المسافات

سببا في وأد الأحلام . فكلما كانت محال السكن متقاربة جغرافيا ، كلما كانت إمكانيات توطيد العلاقة بين الكائنين ، ونسج خيوط العلاقة بينهما ، (تماما مثلما تفتل اليد العاشقة شقائق النعمان) ، نقول كلما كانت هذه الإمكانية قوية وقابلة للتحقق . بل إن بعض الدراسات والأبحاث السوسبولوجية الأمريكية ، برهنت باللموس على قوة الجوار في خلق إمكانيات للعلاقة . لأنه كما يقول الفرنسيون : «البعيد عن العين ، بعيد عن القلب» ، وواهم من يعتقد أن محاولات ردم المسافات الجغرافية قد يغير من ناموس الحياة البشرية .. أما الحالات الإستثنائية الوحيدة التي ردمت فيها هذه المسافات ، فهي تلك التي ينسحب عليها قول الشاعر اللبناني «أنسى الحاج» : «أقيس حبي بدرجة الغياب» ، حيث الإخلاص للآخر وقياس درجة الإيمان به ، يوضع على المحك في غيابه أكثر .

المعطى الجغرافي ، ليس الوحيد في الواقع الذي يفعل في أمر إنضاج العلاقات الإنسانية بين المرأة والرجل ، أو وأدها ، بل لابد أن تلتفت العين المحللة لدور القرابة الإثنية و «القرابة الدينية للطرفين معا . فهذه المجالات جميعها أشبه بساحات شاسعة ، تتقاطع في حدود مجالاتها هذه

الأجساد والكتل الآدمية ، مما يرشحها للتلاقح والتواشح روحيا وجسديا . وقد يتحقق في كثير من الحالات هذا دون ذاك . على أن أكثر الحالات التي تبرز فيها قوة واضحة ، بل وحاسمة مثل هذه المجالات ، هي حالات الهجرة الى بلدان أجنبية . فالمهاجر يستشعر أهمية القرابة الجغرافية ، والإثنية والدينية أكثر من غيره ، لذلك تراه يميل لا إراديا حيث تميل نسائم الجذور الأولى .. وإنصافا للحقيقة ، واعترافا بالواقع، لابد من التأكيد أن إكراهات الجغرافية والقرابة الإثنية والدينية ، قد بهتت كثيرا في المجتمعات الحديثة ، حيث أن الغالبية العظمى من الشباب ، بحكم تحول العالم إلى قرية صغيرة . كما قال بذلك ماكلوهان . أصبح يتجاوز ويردم الكثير من إكراهات هذا الثلاثي .

اجتماعيا تتمثل الإكراهات الاجتماعية في الانتماء الطبقي والفكري للأفراد المرشحين للزواج ، حيث تنتصب قائمة في العرف الاجتماعي ، مسألة التجانس بين هؤلاء الافراد . ورغم الثورات الاجتماعية والفكرية والتكنولوجية ، ورغم تعدد إمكانات تلاقح الأفراد داخل المجتمعات الحديثة ، فإن الواقع لا يفرز . في الغالب الأعم . سوى الزوجات التي ينتمي أفرادها الى نفس الجذر الطبقي

والسلوكي والفكري .

تبرز هذه الإكراهات في البوادي أكثر من المدن ، ثم في الأوساط العمالية بدرجة أقل ، تليهما الأوساط الميسورة .. فيما تضعف وتخفت هذه الإكراهات وشروطها عند الطبقات المتوسطة في المجتمع ، أي التجار والموظفين والأطراف المتوسطة . وعند هذه الطبقة تتحقق أكثر إمكانيات الزواج دون التزام بإكراهات الطبقة ، حيث أن أفرادها يتزوجون من نفس طبقتهم ، مثلما قد يتزوجون بيسر أكبر من الطبقات الميسورة ، أو يرتبطون بدون تردد بأفراد من الطبقات الفقيرة . على أن مجالات الإستحالة هي القائمة بين الطبقات الميسورة والطبقات الفقيرة . ولهذا السبب فإن المجتمعات الحديثة تتحرك وتتطور دوما بتفاعل وحركة طبقاتها الوسطى ، لأنها «المجال» الذي عنده تلتقي مياه خلجان كثيرة ، تحولها إلى ما يشبه طواحين الماء العتيقة التي تطحن القيم والأفكار المختلفة ، وتصدر عنها القيم الجديدة التي تكيف حياة المجتمع برمته .

بمحاذاة الإكراهات الإجتماعية ، تنبت الإكراهات الثقافية حيث أن مستوى التكوين الثقافي (وليس التعليمي) ، يلعب دورا في جعل الطيور على أشكالها تقع ، ويسهل للريح أن

تميل عنق الوردة نحو آفاق هبوبها ..
يبقى أن نؤكد ، كخلاصة ، أنه مهما تجبرت هذه
الإكراهات (الجغرافية ، الإجتماعية الطبقية ، الثقافية) ،
فإن قوة الإنسان كإنسان ، هي في قدرته الدائمة على
الانتصار على هذه الإكراهات وإحباطاتها ، والسبيل الأقوى
لذلك ، أنه كلما كان الأفراد المرشحون للزواج متطابقين
الشخصية (إيجابيا أو سلبا - لأن الطيب للطيب والخبيث
للخبيث ، كما في معنى الآية القرآنية) كلما كان انتصارهما
أكيدا على هذه الإكراهات .. ●

**« غياب الحديث عن الزواج في الثقافة العربية والإسلامية ،
غياب غير مبرر وغير معذور في نظري . »**

هذا الكتاب

بقلم : أحمد بوزفور

« تاريخ »
الزواج « مجموعة من المقالات
الصحافية المَرَكَّزة ، كان الصديق
لحسن العسبي ينشرها في جريدة «الاتحاد
الاشتراكي » .
وفكرة جمعها و إخراجها إلى الناس في شكل
كتاب فكرة قيمة .
أولا : لأننا تعودنا في المغرب على إهمال ما
ينشر في الصحف.. مجرد كلمات عابرة ، عمرها

قصير أشبه بعمر الكلمات الشفوية ، تموت فور استهلاكها، و نادراً ما يجمع الكتاب و الصحفيون أعمدتهم اليومية أو الأسبوعية في كتاب ، على الرغم مما قد يكون - وهو كائن - في بعض هذه الأعمدة من المتعة و الفائدة ، من الجمال و العمق ، من الطرافة و السخرية و الغرابة أحياناً، و من الشهادة والموقف و الرأي في كل حين .

وثانياً ، لأن موضوع هذه المقالات واحد، و هو فوق ذلك ليس أي موضوع ، بل هو بالتحديد ، الزواج في الحضارات المختلفة ، و الزواج موضوع شيق يعكس بتنوعه و تطوره أوجه و مراحل الثقافات الإنسانية كلها .

وأخيراً ، لأن في هذه المقالات جهداً في البحث و الإختيار و التصنيف و الترتيب و التقديم و العنونة، نادراً ما نلاحظه في الكتابات الصحافية ، وإن لم يكن غريباً على الصديق العسبي نفسه ، و هو جهد جدير بالملاحظة و التنويه ، وحرّي بأن يكون قدوة للعمل الصحافي الجاد و المخلص و البناء .

في آخر هذه المقالات يعتذر المؤلف بسعة الموضوع ، عن التطرق الى أوجه أخرى للزواج مثل الطلاق و الخيانة الزوجية ، و نستطيع نحن أن نضيف : الأطفال ، عمل المرأة ، ضرب الزوجات ... الخ الخ .

و نحن نعذره في عدم التطرق الى هذه القضايا كلها ، لأن الزواج موضوع واسع فعلا ، إنه العلاقة بين الرجل و المرأة ، أي تاريخ الإنسانية ككل ، و في جوهره السري أساسا . ومن المستحيل - و ربما من العقيم أيضا - حصر جميع جوانبه في كتاب .

غير أن غياب الحديث عن الزواج في الثقافة العربية و الإسلامية ، غياب غير مبرر ، وغير معذور في نظري . لماذا هذا الغياب ؟

لأن المؤلف يتحدث الى عرب و مسلمين ؟ و لو ، فنحن نجهل الكثير من ثقافتنا و لا سيما في مثل هذه المواضيع ، و حتى ما نعرفه منها قد نراه في ضوء جديد حين يعرض مقرونا ومقارنا بالثقافات الأخرى .

إنني سعيد بتقديم هذا الكتاب سعادة مزدوجة ،
- سعادة بتقديم الكتاب الطريف و الكاتب
الصديق .

- وسعادة بالإسهام - بهذا الشكل البسيط - في
المشروع الثقافي النبيل لـ « شراع » .
إن المشروع الذي يديره إعلامي متمرس
و «مسكون» بالهم الوطني كخالد مشبال ،
و الذي يقدم كتباً مثل «بخط اليد» لعبد الجبار
السحيمي . تجمع بين جمال الكتابة ، و عمق
التأمل و حرارة الوطنية ، يستطيع بالتأكيد أن
يقدم المزيد من ثمرات الفكر والإبداع في ثقافتنا ،
و لا سيما الهامشي فيها أو المهمل أو المنسي .
ويستطيع بالتأكيد ، ومن خلال ذلك ، أن يسهم
إسهاماً فعالاً في بناء المجتمع المدني
الديمقراطي الحر والواعي ، الذي نحلم به جميعاً ،
ونسعى -كل من موقعه- إلى تحقيقه ●

أ.ب

محتويات الكتاب :

- واقع الكتاب المغربي !! (4) ● تاريخ اللغة
- والعنف (10) ● الزواج امر رجالي (16) ● العنف
- الذكورة (23) ● فتى الاسلام (30) ● غيمة
- قبل المطر (37) ● زواج بالمراسلة (45) ● « دولة
- العشاق » (52) ● زيجات المطلحة (59) ● « صندوق
- العروسة » (66) ● هدايا الأغنياء والفقراء (73)
- لغز ضد الشفوة (80) ● شرف
- العائلة (92) ● الطيران بنصف جناح (100)
- مؤسسة الزواج (107) ● « قرن الأفكار
- الكبيرة » (114) ● ديمقراطية الحب (121)
- ديمقراطية الزواج (128) ● إكرامات
- الزواج (135) ● خاتمة : « هذا الكتاب » (142)

- شعارنا الثقافي والإعلامي في محيط العمل والأسرة : «من أجل مجتمع مغربي قارئ».
 - الأعداد السابقة من «سلسلة شراع» ، توجد تحت الطلب بوكالة شراع لخدمات الإعلام والاتصال : (137 شارع ولي العهد – طنجة) .
-

- مندوب وكالة شراع بالرباط : المختار الزباني (النقابة الوطنية للصحافة المغربية - 27 شارع الأمير مولاي عبد الله) .



● إصدارات «سلسلة شراع» :

الكتاب الأول (مارس) :

● «حوار التواصل» - المهدي المنجرة

الكتاب الثاني (أبريل) :

● «المغرب بأصوات متعددة» - محمد العربي المساري

الكتاب الثالث (ماي) :

● «بخط اليد» - عبد الجبار السحيمي

الكتاب الرابع (يونيو) :

● «قضايا راهنة» - مصطفى القرشawi

الكتاب الخامس (يوليوز) :

● «مسألة الحدأة» - نجيب العوفي

الكتاب السادس (غشت) :

● «باهي.. الصحافي والمناضل» - إعداد وكالة شراع

الكتاب السابع (سبتمبر) :

● «اللذة والعنف» - لحسن العسبي

الـثمن : 10 دراهم



كتاب الشهر القادم من
« سلسلة شراع » :

في اللغة والأدب ..

عبد الله غنون



● لا أحتاج لأن أؤكد على قيمة هذا الاهتمام الذي قدم نفسه أولا في صيغة كتابة صحافية . هذا الكتاب يتقاطع فيه البعد الإعلامي مع البعد التاريخي . كما أن البعد الأدبي ينضاف الى هذا التقاطع . من خلل الكتابة الشفافة و روحية الجملة الاحتفية بنفسها . و يشكل في النهاية نصا مفتوحا له جدارة النص السردى الفاتن .

● **يعلمق لصسن العسبي** بهذه الكتابة أفقا شخويا ثريا . دشنه باهتمامه بالعلاقات بين الأدباء وأمهاتهم ، وبتاريخ الأقرام . ثم الأدباء و الققط ... وهو أفق نحتاجه - بدون شك - في تطوير كتاباتنا الصحافية بالمغرب . حتى لا تظل مكدودة الى روحها المتخشبة و اهتماماتها التقليدية .

● هذا الكتاب . كتبه صحافي مغربي من الجيل الجديد . وهو موجه للأجيال كلها كي تعيد الخطوة الى مسارها .

حسن لحي

